خلاصة القرن



410

تأليف: كارل بوبر

ترجمة: الزواوي بغورة

لخضر مذبوح

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المشروع القومى للترجمة

خلاصة القرن

تأليف : كارل بوبر
ترجمة : الزواوى بغورة
و
لخضر مذبوح



٢٠٠٢

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤١٠
- خلاصة القرن
- كارل بوبر
- الزواوى بغورة
- ولخضر مذبوح
- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

ترجمة لكتاب :
La Lecon de Siecle
تأليف : Karl Popper
الصادر عن دار نشر : ANATOLIA

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

المحتويات

مقدمة

بقلم الدكتور/ الزواوى بغورة

لاجدال فى أن الفلسفة عالمية وإنسانية بالطبيعة ، وخلاصة العقل والجهد البشريين، ليس لها من سلطة غير سلطة العقل والبرهان ، فكل ماهو عقلى هو فلسفى وإنسانى وعالمى ومحلى فى نفس الوقت ، لأن الفلسفة تقول بالمظهر والماهية ، بالشكل والمحتوى ، بالعقل وتمظهراته . ولما كانت كذلك فإنها لاتؤمن بالحدود والحواجز والخصوصيات ، لأنها بحث فى الحقيقة ونشدان للمعنى ، وإقامة للتواصل والحوار واللقاء بين الحضارات والأمم مهما اختلفت أديانها وعقائدها ونظمها واتجاهاتها ونحلها ومللها وفرقها ولغاتها .

من هنا سعت الفلسفة قديماً وحديثًا للتغلب على عقبة اللغة من خلال الترجمات من مختلف لغات الأمم ، وكانت بذلك تجسيداً لنزعة إنسانية مبكرة وعميقة ورفيعة ، ولعل فى فلاسفتنا القدامى خير مثال على ذلك ، حيث استعانوا على عقبة اللغة بمترجمين وشراح من أجل معرفة النصوص الفلسفية، والتعرف على أصناف المناهج والطرق المؤدية إلى الحقيقة ؛ لأن المعرفة الفلسفية كما قلنا معرفة عالمية كونية ، تقوم بتعميم التجربة الإنسانية ورفعها إلى مقام المفهوم والمقولة بحيث تنطبق على كل الأجناس البشرية .

من هنا عمدنا إلى ترجمة هذا الكتاب ، الذى هو فى صورة حوارات ومقالات، لفيلسوف القرن كارل بوبر (١٩٠٢ - ١٩٩٤) ، نصوص تعد خلاصة فكره وتجربته حول القرن . ومن دون شك فإن نهاية القرن العشرين قد حملت معها الكثير من الأحداث والقضايا، لعل أهمها نهاية الاستعمار وظهور الأمم الجديدة على مسرح التاريخ وقيام حربين عالميتين وسقوط أكبر إمبراطورية فى العصر الحديث ، سقوط وانهيار فى ظرف وزمن قياسى لم تشهده البشرية من قبل مع ما تبعها من تحولات اقتصادية واجتماعية، هذا بالإضافة إلى التطورات المذهلة فى الصناعة والتكنولوجيا والعلم والمعرفة البشرية على العموم.

ولعل الأهم من هذا كله ليس تحليل ماجرى وماحدث ، ولكن الوقوف على الآفاق ومحاولة استشراف المستقبل من خلال التجربة الماضية والقائمة فى الحاضر ، وهو الأمر الذى دفعنا إلى ترجمة نصوص هذا الفيلسوف الذى كان سبّاقًا إلى العديد من الأفكار التى أكدها الواقع وهو مايزال على قيد الحياة . فإجابةً على سؤال ما الذى يدفعنا إلى ترجمة كتاب حول قرن انتهى أو هو فى حكم الانتهاء ، ولماذا بوبر؟ نقول لأنه كارل بوبر ولأن ما كتبه عن القرن من النواحى العلمية والفلسفية والتاريخية جدير بالقراءة والنظر ، لهذا أردنا أن نطلع القارئ العربى على آخر ماكتب وفكر .

ولعله من باب أولى أن نسجل نقطة تاريخية تضعنا فى سياق الفكر العربى المعاصر، وهى أنه وعلى الرغم من انتشار التيار الوضعى فى الفكر العربى المعاصر وخاصة ما قدمه الأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود، إلا أن بوبر لم تتم معرفته بما فيه الكفاية وذلك لأنه ناقد للوضعية ولأنه لم يتوقف عند التحليلات المنطقية للعلم بل تعدى ذلك إلى المسائل التاريخية والاجتماعية والسياسية بشكل خاص ، ولعله من هذه الناحية – أقصد السياسة ونقد الماركسية على وجه الخصوص – لم ينتشر، إذا عرفنا أن الماركسية هى من التيارات التى عرفت انتشاراً واسعًا فى العالم العربى وخاصة فى الخمسينيات والستينيات وحتى السبعينيات ، وهى الفترة التى نشر فيها كارل بوبر آراءه السياسية والتاريخية وخاصة كتابيه : "المجتمع المفتوح وأعداؤه ١٩٤٥" و "بؤس التاريخانية ١٩٥٧" ، صحيح أن هذا الكتاب الأخير قد تمت ترجمته منذ الخمسينيات ، وتحديداً سنة ١٩٥٩ ، ولكنه بقى فى طى النسيان ، وقد يكون مصير هذه الترجمة هو الذى حثنا على ترجمة هذه الحوارات والمقالات السياسية ، فالمتتبع للتيار الوضعى الذى مثله المفكر الكبير الدكتور زكى نجيب محمود يرى أن المفكر لم يلتفت إلى أهمية بوبر وإلى أهمية نظرياته السياسية ونقده التاريخى للماركسية رغم أنه قد حاول تقديم بعض الملاحظات حول الماركسية دونما الاستفادة من انتقادات بوبر فى هذا المجال[1] .

(١) انظر على سبيل المثال : فى حياتنا العقلية ، دار الشروق ١٩٨١ ، الفصل الخاص بـ : الماركسية منهجاً .

وإن القارئ ليتساءل عن عدم اهتمام الدكتور زكي نجيب محمود بالقراءات النقدية للوضعية وخاصة تلك القراءات التي تمت من قبل مابعد الوضعية ، ويتساءل أكثر عن قدرة هذا المفكر العربي على النقد الذاتي عندما يتعلق الأمر بمشاكل الفكر العربي وخاصة في "تجديد الفكر العربي" و "المعقول واللامعقول في التراث العربي" وبقائه ضمن النظرة الوضعية المنطقية على مستوى النظرية الفلسفية ، وإنه لمن المهم طرح مسألة حدود النقد الذاتي الذي مارسه مفكر من وزن زكي نجيب محمود ، وأن يُسأل إن كان ذلك النقد نقداً أم تكيفاً وتلاؤما واستجابة لمستجدات ظرفية أو مرحلية، خاصة إذا ما تتبعنا المسار النقدي لهذا المفكر الذي أغنى المكتبة الفلسفية العربية وأدخل طريقة جديدة في التفكير الفلسفي العربي .

إننا بطرحنا لهذه الأسئلة لانرغب في متابعة المسار الفكري الذي اتخذته الوضعية ومابعد الوضعية في الوطن العربي بقدر ما نريد أن نتساءل عن مدى معرفتنا بالثقافة الغربية ، وعن مدى قدرتنا على تمثل الفكر الغربي الذي يشكل إحدى المرجعيات الأساسية في الفكر العربي المعاصر ، ولماذا نجد - وتقريبًا في كل الحالات وفي كل الاتجاهات - انتقائية في الاختيار وثباتًا على المعطيات الأولية وتوقفًا عن متابعة التجديد الذي يحصل في الفكر الغربي ؟ ولماذا الفكر العربي المعاصر والمفكر العربي المعاصر يتوقف عن متابعة التطورات والتغيرات والتحولات ما إن يعلن انتماءه ويشكل قناعاته الأولية ، بدلاً من أن يعمل على تقديم فرضيات في البحث وأطروحات وقضايا قابلة للنقاش والتطوير والتحسين ؟ إن هذه الأسئلة هي التي تهمنا أكثر من متابعة المسار الفكري للوضعية ومابعد الوضعية في الفكر العربي .

وفي هذا السياق فإننا نلاحظ - بناء على ماستطعنا الاطلاع عليه - أن آراء وأفكار كارل بوبر السياسية لم تعرف انتشاراً ودراسةً وبحثًا بالرغم من أن أفكاره العلمية والمنطقية والمنهجية قد عرفت طريقها إلى المكتبة العربية ، سواء عن طريق الترجمة أو البحث الأكاديمي(٢) ، فهل كان ذلك اختياراً أم انتقائية ؟ أم أنها استجابة

(٢) نقصد بتلك الأعمال الترجمات والدراسات الآتية :

١ - كارل بوبر : عقم المذهب التاريخي ، ترجمة د. عبد الحميد صبرة ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٥٩ . وأعاد نشره بعنوان : بؤس الأيديولوجية ، نقد مبدأ الأنماط في التطور التاريخي ، دار الساقي، بيروت، لبنان ، ١٩٩٢ . =

ناتجة عن ظروف وضغوط سياسية واجتماعية واقتصادية ؟ وإلا كيف نفهم أنه في الوقت الذي بقي فيه فكر بوبر السياسي محدود التداول في أوروبا وخاصة في فرنسا وإيطاليا[٣] ، يكون الأمر كذلك في الوطن العربي، أليس الأمر يعود إلى أن الأفكار التاريخانية التي كانت مهيمنة على الضفة الشمالية للبحر المتوسط في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات من هذا القرن كانت هي نفس الأفكار المهيمنة في العالم العربي .

قد يكون هذا أحد الأسباب التي تبين وتوضح غياب النص السياسي لكارل بوبر وخاصة كتابه "المجتمع المفتوح وأعداؤه" ، الذي نتمنى أن يترجم وأن تقام حوله دراسات وحول غيره من النصوص السياسية والتاريخية ذات الأهمية القصوى في تاريخنا المعاصر ، وخاصة تلك المتعلقة بمعنى التاريخ وبالنظرية الماركسية .

والذي شدنا أكثر إلى ترجمة هذا الكتاب هو حجم القضايا التي طرحها بوبر ووجهة نظره في معالجتها وهي - كما سيبين التحليل قضايا راهنة وبعضها حارقة - مثل العنف ودولة القانون والديموقراطية والأقليات ... إلخ ، هذه القضايا الأساسية مطروحة من زاوية السيرة الذاتية ، لذلك فهي بقدر ما تعكس اهتمام الذات ومشاكلها فإنها تعكس في الوقت نفسه تفاعل الذات مع واقعها وتاريخها ، وأكثر من هذا تجاوز

= ٢ - منطق الكشف العلمي ، ترجمة د. ماهر عبد القادر محمد علي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٧ .
ملاحظة : ترجم الكاتب، الفصل الأول والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس ، أي الجزء الأول من الكتاب الذي يتكون من منطق الكشف العلمي الذي يتكون بدوره من ثلاثة أجزاء هي : "المذهب الواقعي وهدف العلم" ، و "العالم المفتوح" ، و "نظرية الكوانتا" .

٣ - بحثًا عن عالم أفضل ، أحمد مستجير ، سلسلة ألف كتاب ، ١٩٩٧ .

أما الدراسات فهي :

١ - يمنى طريف الخولي : فلسفة كارل بوبر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ .

٢ - محمد محمد قاسم : نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٦ .

٣ - كامل محمد عويطة : كارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٩٥ .
(طبعًا لاتشكل هذه قائمة نهائية لأعمال الفيلسوف بالعربية ، ولا يمكن أن نزعم ذلك في ظل غياب بنك للمعلومات العربية في هذا المجال).

(٣) "المجتمع المفتوح وأعداؤه" ، الذي يعود إلى سنة ١٩٤٥ ، ولم يظهر في الطبعة الفرنسية إلا سنة ١٩٧٩ .

الذات لشرطها الوجودى والمعرفى ، وهو ما مكنها من الإبداع والاستكشاف رغم كل ملابسات الواقع ومعوقاته وتعقداته ، وهكذا فإن البحث عن الحقيقة والصدق فى البحث عنها والإيمان بها والاقتناع بها والتأكد الدائم منها يؤدى بالضرورة إلى نتائج صحيحة ، إن هذا ينطبق على بوبر وعلى مساره العلمى والسياسى معًا، ذلك المسار الذى تلاحم فيه النضال السياسى بالبحث العلمى وحب وإرادة الكشف عن الحقيقة مع أخلاقيات علمية وفلسفية رفيعة .

لقد كان بوبر خصمًا كبيرًا لماركس والشيوعية، ولكل الذين يزعمون تأييد مشروع سياسى على أساس معرفة قوانين الصيرورة التاريخية ، إنه المنظِّر للمجتمع المفتوح ، وبالنسبة له فإن أحداث ١٩٨٩ و ١٩٩١ حققت صحة انتقاداته الكبيرة للماركسية ... لقد بدأ صياغتها فى سن السابعة عشرة ، بعد أن فتنته الأيديولوجية الشيوعية لفترة قصيرة ، خصوصاً من خلال النزعة السلمية للثوريين البلاشفة ، وأوقعته فى فخها (فخ الفأر "piége à rat" ، كما قال)[٤] .

لقد أراد المحاور الإيطالى أن يسأل بوبر عن كيفية صياغته مبكرًا لقناعات واضحة جدًا ، حول الخطأ الملازم للنسق الماركسي ، وماهو الموقف الذى تبناه تجاه الناس ، وخصوصًا المفكرين الذين بقوا على قناعة بالنظرية الماركسية ، والتى فهم قوتها وخطأها[٥] فى الوقت نفسه ، ولم ينجر إلى قدرية معينة أو إلى نوع من الكبت ؟ نستطيع أن نتصور – كما قال محاوره – أنه قد انتظر على ضفة النهر ، حتى تمر أمامه جثث أعدائه . لكن لا شىء من هذه الصورة ينطبق عليه ، لا الجثث لأنه يتخذ مبدأ "اللاعنف" كواحد من أسس الحضارة ، ولا الأعداء لأن التقسيم الثنائى

(٤) K. POPPER, la quéte inachevée, traduction française de Renée Bouvéresse, Paris, Calmann Levy, 1981.

ملاحظة : النص مأخوذ من مقدمة المحاور الإيطالى ، ونظرًا لتوجه المقدمة إلى قراء غير القراء العرب ونظرًا للاختلاف فى الاهتمام آثرنا الاستغناء عن مقدمة المحاور ، واستبدالها بمقدمة من عندنا تبين علاقتنا بنصوص بوبر ، وتشير إلى القضايا الأساسية التى تهمنا كمجتمعات نامية لايدور عليها الحديث فى هذه الدراسة إلا بطريقة غير مباشرة . (م)

(٥) يقول كارل بوبر فى سيرته الذاتية "بحث ممتد" ص ٥٤ ، حيث يعرف فيها الحجة الماركسية كما يلى : "إنها تتمثل فى نبوءة تاريخية ، مشتركة مع نداء ضمنى للقانون الأخلاقى التالى : أيِّدوا المحتوم" .

(التـاريخ والسياسة) كمعسكرين عدوين هو واحدٌ من المآخذ التى يؤاخذ بها الماركسية ، ولا النهر ، لأنه بالنسبة لبوبـر (تمثيل التاريخ بمجرى مـائى ، نعرف منبعه ومصبه) هو على وجه الدقة سبب عـدد كبـير من الجرائم ؛ "إن الوقـت الحاضر هو الوقـت الذى ينتهى فيه التـاريخ ، ونحن لسنا قـادرين على رؤية التـاريخ ، باعتقادنا أن لنا القدرة على التنبؤ بتياره ، ولا نستطيع كذلك أن نقول : إننى عرفت دائما أن النهر سيمر من هنا" .

عند بوبر ، فكرة المجتمع المفتوح تتعلق بمستقبل مفتوح ، بكل تأكيد نتعلم من الماضى ، لكن لاشىء يسمح لنا بإسقاطه على المستقبل للتنبؤ بما سيحدث . إن الزعم بمعرفة مسار مستقبل التاريخ ينزع كل مسئولية أخلاقية عن الحاضر ، ويحول الناس إلى مجرد منفذين لمصيرٍ – مهما كان الحال – سيتحقق . ومن وجهة النظر المعادية للتاريخانية الراديكالية لبوبر فإن فكرة "معنى التاريخ" ، وفكرة "وجهة" مسار القضايا أو الشئون الإنسانية" ، هى "بلاهة خطيرة" لأنها تؤدى إلى إعطاء المشروعية للعنف والاعتباط ، وهو ما يمكن أن يعرض الناس للسوء .

فكيف نفسر الانهيار والسقوط ؟ لقد بدأ من النقطة الأضعف من "المجرى" – وإن كانت أسبابه البعيدة محللة أكثر فى كتابيه "المجتمع المفتوح وأعداؤه" و "بؤس التاريخانية" – وكانت نتائجه كبيرة على النظرية السياسية المعاصرة ، ولعل أكبر مشكلة تواجهنا ليست تحليل ماجرى بقدر الإجابة على سؤال كيف العمل على إقامة بناء جديد ؟

لبوبر وجهة نظر مؤداها أن البناء الجديد لا يقوم على اقتصاد السوق ولكن على دولة القانون من خلال العدالة ، لذا يكتسى القضاء وتكوين القضاة أهمية بالغة فى تصوره. فكيف يتم تنظيم مجتمع مابعد انهيار الاشتراكية ؟ – وهو سؤال تتقاسمه العديد من البلدان العربية ، التى اعتمدت التخطيط وإدارة الدولة للاقتصاد – يجيب بوبر بضرورة الحفاظ على التوازن الصعب بين حرية السوق وتدخل الدولة ، مع تفضيلٍ لتدخل تدرجي ديموقراطي للدولة فى الآليات الاقتصادية، أو كما قال (لا وجودَ للاقتصاد من دون تدخل للدولة) .

وأما عن دور اليمين واليسار فى العمل السياسى فإنه يقدم جملة من الأولويات المشتركة التى تتطلب تعاون الجميع وهى : السلم ، والتربية على اللاعنف ، والتحكم فى النمو الديموجرافى . هذه الأولويات ليست يمينية ولا يسارية، وإنما هى قضايا مشتركة

تفرض تعاون الجميع مثلها مثل مشاكل البيئة والمحيط المرهونة ، هي أيضا بالحد من النمو الديموجرافى ، وليس بالحد من التكنولوجيا والصناعة ؛ لأنه بالعلوم الطبيعية والتكنولوجية نستطيع حماية البيئة والمحيط وليس العكس، كما أن التربية على اللاعنف تفرض الرقابة على وسائل الإعلام ، مهما كنا محافظين أو ليبراليين ، يمينيين أو يساريين فإنه لا حرية من دون مسئولية ، وإنه لايجب أن نربي الشباب وخاصة الأطفال على العنف ، وإن دولة القانون تقتضى إقصاء العنف، بل أكثر من هذا إن تعريف دولة القانون لايكون من دون القضاء على العنف ، أو كما قال (دولة القانون هى الدولة المناهضة للعنف) .

وحول البديل السياسى الذى يحمل هذه الأولويات ويطبقها خارج ثنائية اليمين واليسار يجيب بوبر بقوله : إنه النموذج الديموقراطى حيث يجب الخروج من التمثيل البرلمانى على مستوى الأحزاب إلى تمثيل المواطنين ، كما يجب أن تقوم الديموقراطية على الحرية الثقافية للناس واحترام لغاتهم وأديانهم وتقاليدهم ، من هنا وجب على الدولة الديموقراطية حماية الأقليات والتعاون مع الأديان رغم الطابع العلمانى للديموقراطية ، شريطة استبعاد كل أشكال التطرف والتعصب أو الأصولية لأنها خطر على الديموقراطية .

إن الديموقراطية ليست حكم الشعب كما هو رائج ومفهوم خطأً ، الديموقراطية هى القدرة على محاكمة الحكومات والمقدرة على منع قيام طاغية باسم شعبيةٍ أو أغلبيةٍ مهما كانت ، فليست الديموقراطية حكم الشعب ولكن منع انعدام الحرية وتجنب ظهور طاغية أو ديكتاتور باسم الأغلبية أو باسم الشعبية ، الديموقراطية تقتضى المقدرة على إقالة الحكومات والدفاع عن المعوزين والمعاقين وخصوصاً الأطفال وحمايتهم من عنف وجرائم الكبار .

هذه هى بعض القضايا التى يطرحها فيلسوف القرن فى درسه أو خلاصته حول القرن – كما آثرنا أن نعنون هذا الكتاب – وهى قضايا تمتد إلى مناقشة ونقد النزعة التاريخية وخطر البحث عن معنى للتاريخ ، بالإضافة إلى أطروحاته حول الدولة وحول مايسميه بدولة الحد الأدنى وعلاقتها بالحرية ومسئولية المثقف ودوره فى المجتمع ، ولعل أهم وأكبر تلك المسئوليات مسئوليته فى السلام والحقيقة الموضوعية والحكمة والأمل فى مستقبل مفتوح .

مقدمة

جيانكارلو بوزيتي[1]

فى لحظة معينة أثناء محاورتنا ، عند منتصف جلسة طويلة فى بيته بكنلىّ Kenley، بمقاطعة سارّىّ Surrey ، مسافة ساعة من لندن ، وعند عودته مرة أخرى إلى مسألة نقده للماركسية ، ينهض كارل بوبر ويدعونى لاتباعه إلى بهوه حيث المكتبة ، فالتففنا حول بيانو كبير غطّى ظهره كلية بكتب كان بعضها مفتوحاً، الكتب الأخرى الأكثر ثقلاً وضعت على مقارئ معدنية . ومن الفضول معرفة عما إذا كان يشتغل (الفلاسفة ما قبل سقراط ، السيرة الذاتية لدالاى لاما Dalai - lama ، أو أزمة الصواريخ بكوبا) ، جلت بناظرى متنقلاً من بعضها إلى بعضها الآخر ، لكن بوبر أخذنى من يدى وقادنى إلى نهاية الحجرة قرب أدراج مخصصة لماركس ، جمعت طبعات عديدة إنجليزية وألمانية للقرن التاسع عشر ، مجلدة بالنحاس ، بعناوين حروفها ذهبية . إنها الجزء الأقدم من المكتبة ، على عكس المكتبة التى يحفظ فيها هذا الفيلسوف ذو الأربع والثمانين سنة أعمالاً مترجمة فى كل اللغات . أظهرت لى أجزاء "رأس المال" التى يشتغل عليها منذ سن السابعة عشرة ، لكن ليس من أجل هذا قطعنا الجلسة ، أخرج مؤلفًا أقل علوا وأكثر انبساطًا ، الطبعة الإنجليزية لسنة ١٩١٣ "بؤس الفلسفة" ، تصفحه عارفًا بكفاءة عما يبحث عنه فيه ، وأظهره لى فى الصفحة ١١٧ ، ثم قال لى : "لنر ما يقول هنا" وقرأ واحدة من الجمل الأخيرة من هذا المقال لماركس ، الذى صدر بباريس سنة ١٨٤٧، ردا على "فلسفة البؤس" الذى كان قد نشره فى السنة السابقة برودون ، إنه يعالج مسألة "تحرير الطبقة المضطهدة (البروليتاريا) ، وهذا يستلزم بالضرورة خلق مجتمع جديد"، وتحدّث : "عندما لا تستطيع القوى المنتجة المحققة قبل

(١) ترجمة الأستاذ لخضر مذبوح .

والعلاقات الاجتماعية الموجودة أن تتواجد جنبًا إلى جنب" ، "تنظيم العناصر الثورية كطبقة ، يفترض وجود كل القوى المنتجة التى يمكن أن تنتج داخل المجتمع القديم" لكن ما يهم بوبر فى هذا المقطع الشهير الذى يدخل مفهوم "الثورة الشاملة" ، ويعلن عن نهاية كل عداء وصراع ، إنها نقطة دقيقة ، كما لو رأى فيها ثغرة بارزة ، كما لو أنه هنا فى رأس ماركس ظهرت المسألة المفتاح التى يمكن أن تقلب بناءه النظرى ، وقرأ الأسطر الثلاثة التالية "هل يكون هناك بعد سقوط المجتمع القديم هيمنة طبقية تتلخص فى سلطة سياسية جديدة»[٢] .

إن هذا التساؤل يمس بدون شك لبّ مشكلة الشيوعية ذاتها ، لأنه بدا أن هذه الفكرة (فكرة نهاية كل صراع اجتماعى وسياسى) غير ملائمة مع الديموقراطية ، مع مبدأ الحرية فى المعارضة وتضمناتها ، لأنه بعد أن تعرض إليه أجاب ماركس بكل بساطة "لا"، "هو ذاك"، قال بوبر بطرحه لهذا السؤال إنه قد لمس هذا المشكل الكبير ، ماذا بعد ؟ يكتفى بـ "لا"، بدون أى تفسير وبدون حتى محاولة ، كما كان يتوجب عليه إظهار لماذا ، وعلى أى أساس يستند يقينه ، لأننا نعرف الآن أن ماركس أخطأ فى هذه النقطة .

كان بوبر خصمًا كبيرًا لماركس والشيوعية ، ولكل الذين يزعمون تأييد مشروع سياسى على أساس معرفة قوانين الصيرورة التاريخية ، إنه المنظّر للمجتمع المفتوح ، وبالنسبة له فإن أحداث ١٩٨٩ و ١٩٩١ حققت صحة انتقاداته الكبيرة للماركسية . لقد بدأ صياغتها فى سن السابعة عشرة بعد أن فتنته الأيديولوجية الشيوعية لفترة قصيرة ، خصوصًا من خلال النزعة السلمية للثوريين البلاشفة ، وأوقعته فى فخها "فخ الفأر" "piége à rat" ، يذكر هذا فى هذه المحاورة ، التى تكمل وتثرى بعناصر غير منشورة قصة هذه المرحلة من حياته ، التى عرضت قبل فى سيرته الذاتية[٣] ،

(٢) المقاطع مأخوذة من الطبعة الفرنسية ، كارل ماركس : بؤس الفلسفة ، رداً على فلسفة البؤس لبرودون. فى ماركس أعمال II ، مكتبة بلياد ، غاليمار ، 1965 .

(٣) K. POPPER, la quête inachevée, traduction française de Renée Bouvêresse, Paris, Calmann Levy, 1981.

وانتقاداته قد وضحت فى "المجتمع المفتوح وأعداؤه" ، الذى يعـود إلى سنة ١٩٤٥ ، ولم يظهر فى الطبعة الفرنسية إلا سنة ١٩٧٩ . إن الفائدة اليوم من معرفة الأفكار السياسية لبوبر ، ليس فقط استعراضاً جديداً للنقاط القوية لهجومه على الماركسية ، وإذا كنت اليوم هنا معه ، فذلك من أجل سببين رئيسيين : واحد يتعلق بالتاريخ ، والثانى بالنظرية السياسية ، السبب الأول مرتبط بالسؤال الذى كنت آمل منذ ١٩٨٩ طرحه على فيلسوف كان قادراً (بعد فترة وجيزة من ثورة أكتوبر) أن يتصور نقداً للشيوعية الماركسية ، التى ردد غالبية المختصين فى السياسة المعاصرون خطوطها الكبرى .

النظام الشيوعى الذى ولد فى شبابه قد اجتاز حوالى أربعًا وثمانين سنة من حياته، أردت أن أطلب من بوبر - الذى صاغ مبكراً قناعات واضحة جداً حول الخطأ الملازم لهذا النسق - ما هو الموقف الذى تبناه تجاه الناس ، وخصوصًا المفكرين الذين بقوا أوفياء لقناعات متعارضة ؟ طلبت منه إذا كان فى مواجهة أمر واقع مستمر لمدة طويلة ، يستند إلى نظرية (التاريخانية الماركسية) التى فهم - فى نفس الوقت - قوتها وخطأها[٤] ولم ينجر إلى بعض القدرية ، أو يظهر بعض الكبت ، لأنه فى الأخير ماذا يفيد تطويق خطأ إذا استمر مدة طويلة جداً ؟ لم يرد بوبر التعرض لهذا السؤال تعرضًا مباشراً إلا فى نقطة واحدة ، حتى يستخرج أدلة أخرى ضد التاريخانية . نستطيع أن نتصور أنه فى العمق قد انتظر على ضفة النهر ، حتى تمر أمامه جثث أعدائه ، لكن لا شىء من هذه الصورة ينطبق عليه ، لا الجثث لأنه يتخذ مبدأ "اللاعنف" كواحد من أسس الحضارة ، ولا الأعداء لأن التقسيم الثنائى (التاريخ والسياسة) كمعسكرين عدوين هو واحدٌ من المآخذ التى يؤاخذ بها الماركسية ، ولا النهر لأنه بالنسبة لبوبر (تمثيل التاريخ بمجرى مائى ، نعرف منبعه ومصبه) هو على وجه الدقة سبب عدد كبير من الجرائم ، "إن الوقت الحاضر هو الوقت الذى ينتهى فيه التاريخ ، ونحن لسنا قادرين على رؤية التاريخ، باعتقادنا أن لنا القدرة على التنبؤ بتياره ، ولا نستطيع كذلك أن نقول : "إننى عرفت دائماً أن النهر سيمر من هنا" .

(٤) يقول كارل بوبر فى سيرته الذاتية "بحث ممتد" ص٥٤ ، التى يعرف فيها الحجة الماركسية كما يلى : "إنها تتمثل فى نبوءة تاريخية ، مشتركة مع نداء ضمنى للقانون الأخلاقى التالى : أيِّدوا المحتوم" .

عند بوبر فكرة المجتمع المفتوح تتعلق بمستقبل مفتوح ، بكل تأكيد نتعلم من الماضى ، لكن لا شىء يسمح لنا بإسقاطه على المستقبل للتنبؤ بما سيحدث . إن الزعم بمعرفة مسار مستقبل التاريخ ينزع كل مسئولية أخلاقية عن الحاضر ، ويحوّل الناس إلى مجرد منفذين لمصير – مهما كان الحال – سيتحقق . ومن وجهة النظر المعادية للتاريخانية الراديكالية لبوبر فإن فكرة "معنى التاريخ" ، وفكرة" وجهة لمسار القضايا أو الشئون الإنسانية" ، هى "بلاهة خطيرة" لأنها تؤدى إلى إعطاء المشروعية للعنف والاعتباط ، وهو ما يمكن أن يتعرض له الناس من سوء . نفهم إذن لماذا يفهم الموقف الذى يتمثل فى القول : "أعرف أن هذا سينتهى هكذا" ، ولا يتعلق الأمر عنده بتواضع مراوغ ، أو حرج ظرف . بوبر يهنئ نفسه على سقوط الشيوعية ، وأكثر : يهمه محاربة فكرة أننا محمولون بمسار التاريخ تحت جميع أشكاله ، حتى فى الفن ، وليس فقط فى الميدان السياسى .

إذا غذّت الماركسية الإيمان بالشيوعية (بصفتها حركة واقعية تطيح بنظام الأشياء القائم على أساس معرفة "قوانين الصيرورة" ذات غائية Téleologie تسمح وتجيز بتشكيل المادة الاجتماعية) فإن هذا لا يبرر البتة الإيمان المعاكس والمناظر : "نهاية الشيوعية ليست نتيجة قوانين أخرى "صادقة" للتاريخ ، وتأييداً لهذا الموقف المضاد للقدرية أكثر منه مضاداً للتاريخانية يتقدم بوبر خلال حديثنا بتأكيدين يستحقان التفكير :

التأكيد الأول : النظام الشيوعى كان يمكن أن يستمر مدة أطول ، وحتى إلى الأبد ، فهذا الذى سبب سقوطه ليس قانونًا ولا مصيراً أو قدراً ، لكنه سلسلة محددة جدًا من الوقائع والقرارات المتخذة من قبل رجال من لحم وعظم ، لها مجازفتها ومخاطرها .

التأكيد الثانى : الأيديولوجيا الماركسية ووجود سلطة شيوعية أظهرا بصفة حتمية إلى الوجود أيديولوجية معادية للماركسية وللشيوعية ، وطيلة هذا القرن لحظنا مواجهة بين هذين المذهبين "اللذين كانا بصفة ما مجنونين" .

إن هذا التأكيد الأخير يستدعى تطورات عديدة مهمة ، إن نحن اتفقنا مع الرأى القائل أن ثمة عناصر "جنون" من طرف لآخر ، وهذا لا ينقص شيئًا من المسئوليات

التى يحملها بوبر للماركسية – إفلاس الأنظمة المستلهمة من المشروع الماركسى لا يستلزم أن ننسبه إلى الأيديولوجيا التى حاربته ، على الأقل كما قدمت طيلة هذه المواجهة ، وزيادة على هذا ، بغض النظر عن السياسات الرجعية والمحافظة التى ترفع لواء العداء للشيوعية لمعارضة الحركات الديمقراطية اليسارية – الحركات التى لا علاقة لها بالشيوعية وترفضها هى أيضا– فإن هذا التأكيد يقترح أن الفكر الليبرالى يستطيع أن يلعب أو يعيد لعب دور (الذى منذ ثورة أكتوبر) قد فتت شيئًا فشيئًا .

إن هذا الاستدلال يقودنا إلى النظرية السياسية، النقطة الثانية التى بدا لى مهماً فى هذا الوقت معرفة فكر بوبر حولها ، هل نستطيع أن نعثر فى "ليبراليته" على مداخل حل محتمل لمشكلة السياسة ولمشكلة اليسار ؟ يتعلق الأمر برؤية إذا كان القوس الشيوعى الطويل ، قد أخفى مسارات أخرى ممكنة ، وإذا كانت هناك خيارات كبرى قادرة على الجمع بين الحركات والانعتاق الاجتماعى لم تسحق ولم تحجب بالتصادم بين الليبرالية المعادية للشيوعية والشيوعية ، باختصار ما إذا كان ممكنًا رؤية يسار ذى وجه ديموقراطى ، اجتماعى وليبرالى ، الذى يبدو لحد الآن تقريبًا طوباويًا ، يستطيع أن يدخل فى نطاق الممكن فى سيرته الذاتية . كتب بوبر حول موضوع الحقبة التى ابتعد فيها عن الشيوعية : "لقد بقيت شيوعيًا خلال سنوات عديدة أخرى ، حتى بعد رفض للماركسية ، ولو كانت مواجهة الاشتراكية والحرية الفردية قابلة للتحقيق ، لكنت اشتراكيًا اليوم أيضا ، لأن لا شيء أفضل من العيش عيشة متواضعة ، بسيطة وحرة فى مجتمع مساواتى . وتطلب منى هذا وقتًا قبل أن أدرك أن هذا ليس إلا حلمًا جميلاً ، وأن الحرية أكثر أهمية من المساواة ، وأن محاولة إقامة المساواة يعرض الحرية للخطر ، وأن التضحية بالحرية لن تجعل البتة المساواة تسود بين المستعبدين"(٥) .

يستطيع بوبر بدون شك تأكيد هذه الكلمات التى كتبها سنة ١٩٧٦ ، إن الجمع أو الاتصال ما بين الاشتراكية والليبرالية الفردية ليس إلا حلمًا ، على الرغم أنه يُستنتج من محاورتنا أن بوبر لا يتخلى ولا يتراجع عن الضرورة السياسية فى الحدود التى

(٥) "بحث ممتد" نفس المصدر ، ص ٤٦ – ٤٧ (النسخة الفرنسية) .

تسـاهم فيها فى إقامة التوازن بين السوق الحرة وتدخل الدولة ، ويبدو إذن أن منظوره لا علاقة له بالليبرالية التغيبية Abstensionniste .

ومن العلامات الكاشفة أنه يلوم جورباتشوف كونه أراد خلق بورصة قيم بموسكو، قبل أن يقوم جيداً بإصلاحات سياسية ، كان يجب أن يعلن ميلاد دولة القانون ، ونفس الشىء عندما باسم التربية على ثقافة اللاعنف يدعو إلى رقابة على وسائل الاتصال الجماهيرية ، ويظهر توجهًا تدخليًا جداً "très interventioniste" . نجد فى «المجتمع المفتوح وأعداؤه» أن تفكير بوبر حول هذه النقطة – التوازنات بين الدولة والسوق – يبدو من قبل مؤيداً ، ليس بدون تحفظات كبيرة مع ذلك ، لتصور عمل سياسى ذى توجهٍ تدخلى ديموقراطى وتدريجى ، لكن سيكون صعباً استخراج جدول عمل سياسى منه أكثر وضوحاً مما هو فى هذه المحاورة .

بالفعل يفترض وظيفة حكومية تتجه نحو أهداف ذات بعد دولى (لإزالة القنابل الذرية ، ومراقبة المواليد ، والتربية) وهى قليلة الملاءمة ، ليس مع نظرية "المجتمع المفتوح" لكن مع روح هذه النزعة الليبرالية ، التى تسعى لتحديد امتداد العمل السياسى ، إن هذه الاختلافات تضر بطبيعة المشكلات التى تطرح اليوم لكن أيضا بانهيار الدولة الشيوعية .

إن انهيار الشيوعية له انعكاسات ليست فقط على الحياة العامة ، لكن أيضا على النظرية ، خصوصًا فى الحقل الواسع للفكر الليبرالى ، كما تؤكدها التصريحات الحديثة لمفكر مثل أشعيا برلين Isaiah Berlin الذى يعرض فى الميدان السياسى تشابهات مع بوبر ، مع اختلاف هذا الأخير (أشعيا برلين) الذى يصغر بوبر بسبع عشرة سنة ، لم يفتن أبداً بالماركسية والشيوعية ، فى فترة طفولته تحمست عائلته لثورة فبراير ١٩١٧ ، لكنه صدم بسرعة بوصول البلاشفة إلى الحكم . موقفه تجاه الماركسية وتطور تفكيره السياسى قد تعرض لها بشكل مفصل فى حديث مع ستيفن لوكس[٦] ، فى المقال الشهير لهذا المؤرخ أفكار عنونت "تصوران للحرية" الذى يقيم التمييز بين

(٦) I. BERLIN : Eloge de la liberté, traduction Française de J. Carneaud & J. Lahona, Paris Pres, Rochet, 1990.

الحرية الإيجابية والحرية السلبية . هذا المؤرخ يبحث أساساً على التحذير من مخاطر مشروع سياسى يتمحور على الحرية الإيجابية التى هى حرية الفعل وحرية الوجود ، بعبارة أخرى من مخاطر المجازفات تحديد المحتويات والصفات التى يجب أن ينعت بها الوجود الإنسانى ، وهدفه الرئيسى كان بالتحديد المشروع الماركسى . بيد أن الحريات السلبية (غياب التضييقات التى – إذا دفعت إلى أقصى حد – تطابق فى الاقتصاد : دعه يعمل دعه يمر) دوفع عنها كما لو كانت معقلاً لاينال ، بالنسبة لبرلين ، فإن الميزان يميل نحو هذه الحريات السلبية ؛ لأن الأنظمة الشيوعية كانت التهديد الأكبر الذى يجب تجنبه .

الحرية الإيجابية كانت إذن معروضة "كمسئول حقيقى" عن كل الشرور ، وهذا ما يعنى – عند هذا النصر الهام للفكر الليبرالى للقرن العشرين – أنه ضرورى كلية تعريف الأهداف والمحتويات الجوهرية للعمل السياسى – مهمة تتوجب على اليسار – أكثر من الدفاع عن مبادئ الحرية الفردية ضد تعديات السلطة . إن المنعطف الكبير لسنة ١٩٨٩ داخل الدول الشرقية يبدو إذن له نتائج ثقيلة على الفكر السياسى ، بعد استبعاد التهديد الذى كانت تمثله الأنساق السياسية التوتاليتارية ، والأنساق الاقتصادية الحكومية . والنفور الذى يلهمه تدخل السياسى فى المجتمع وفى الاقتصاد ، الذى قد ساد على نطاق واسع فى الفكر الليبرالى ، يبدو أنه زال ، وهكذا انتهى الموقف الذى يغطى التعارضين العام/الخاص ، نظام اشتراكى/نظام رأسمالى .

إذا كانت السياسات الاقتصادية والاجتماعية التى تطالب بها الحركة الاشتراكية الغربية والديموقراطية – وبصفة عامة من قبل اليسار – كانت مختلفة كلية ومستقلة عن اقتصاديات الأحزاب الشيوعية الحاكمة بالشرق فى العديد من المشاريع التى تتطلب توسيعًا لميدان العمل العمومى ، قد اجتذبت حتمًا داخل فلك الشيوعية المهتم بالتوتاليتارية ، والتى رفضت أحيانًا ثمنًا للتخلى عن قرارات سياسية جيدة .

بديهى أن سياسات التشغيل الكامل وحماية العمل والضمانات الاجتماعية يتجلى ظل التجارب الاشتراكية الحقيقية ، التهديد التوتاليتارى ، وانطفاء المبادرات الخاصة والحريات الفردية ، وأن هذا التنضيد superposition قد تم بنوايا تدعيم المصالح الخاصة حيث أنه حتى الضرر الشيوعى الذى حمّل على الأكثر بتوسع الدولة الراعية l'état providence ،

وبواسطة تدابير إعادة التوزيع تبدو غير متماسكة كلية ، وهذا لا ينقص في شيء النتائج والآثار في الموقف الموصوف بوجود أنظمة شيوعية ، فإن ترجح الميزان العام / الخاص ، عمل سياسي/لا عمل ، الدولة/السوق ، يمين/يسار ، بالنسبة لموقف مثالي قد وجد مشوشاً بحضور المعسكر المغناطيسي الشيوعي الجذاب على حساب الأول .

طبعًا يتوجب التساؤل أيضا حول التأثيرات المتعارضة التي أمكن أن توجد (التدخل المباشر لأنظمة الشرق في الشئون السياسية للبلدان الغربية) ، لكن خصوصاً دور الأيديولوجيا الشيوعية في حياة جزء من الحركة العمالية لأوروبا الغربية . نستطيع أن نفكر على سبيل المثال في أسطورة ستالين طيلة ما بعد الحرب ، لكن مايهم الإشارة إليه هنا حث الفكر الليبرالي بالمعنى الواسع، أن يكون أقل تردداً واتجاهً منهج لتدخل ، كما لو كان في الأخير ممكنا أن يشغل مكان تصور مفيدٍ حتى الآن ، لكن تُجنب لأنه خطير .

إن قائمة الأولويات في البرنامج السياسي المقترح اليوم من قبل بوبر خلال هذه المحاولات تفترض (خصوصًا فيما يتعلق بتربية اللاعنف) تسويغا شرعيًا كبيراً للعمل العام ، الذي يمكن أن يذهب إلى حد الرقابة - كما قيل قبلاً - من أجل حماية الأطفال ، حتى وإن كنا لا نشاطر الخلاصة التي انتهى إليها الفيلسوف - والتي مع ذلك يجب أن نفكر فيها - بالأخذ بعين الاعتبار التحقيقات العديدة التي تمت بالولايات المتحدة[٧] - ونسجّل أهمية المقطع الذي يصوغ فيه بوبر هذا الطلب دون أن يبتعد عن "قناعته الليبرالية" ، إنه يستند على فكرة دولة القانون كضامنة لحماية الأفراد ضد العنف أو ضد سلطة الدولة ، لكن أيضا كنتيجة مسار حضاري مؤسس على كره عام تجاه العنف وعلى اتفاق عام على تجنبه ، وما يعرض الثقافة للخطر ، وكذا التكوين والقيم الأخلاقية التي يستلهم منها سلوك المواطنين ، وعلاقاتهم وتربية أبنائهم .

فدولة القانون كما يراها بوبر هي أولوية مطلقة : إذا كانت النسبة المئوية للأفراد الذين يخرقون الإجماع تتجاوز عتبة ما ، فــدولة القانون مهددة ، أو حتى مبادة ،

(٧) Collectif d'auteurs : Big world small screen the role of television in American society, London University of Nebrashe Press, 1992.

وكلما كانت حصة العنف أكبر ، فى المجتمع ضعف الاتفاق العام للقضاء عليه ، توجب توسيع حقل التدابير السياسية القمعية . إن استئصال العنف (الذى هو الوظيفة رقم واحد لدولة القانون عند بوبر) يمكن القيام بها على هذا الشكل، لكن هناك طريق آخر يبدو له أكثر ملاءمة مع التصور الليبرالى ، الطريقة التى تدافع وتربى النزوع الطبيعي للاعنف ، اللجوء إلى تدابير صارمة تجاه وسائل الاتصال الجماهيرية ، مثل الرقابة التى تبدو له ضرورية لوضع حد للفساد والتفسخ ، لكنها يجب أن تتم بالموازاة مع سياسات التربية مثبتة لدولة القانون . إن فكرة دولة القانون تهدف من ورائها هكذا إلى أن يكون لها "جوهرٌ اجتماعيٌ معمولٌ من طبقات ثقافية وأخلاقية ، التى ستتنضدُ عبر الأجيال ، والدفاع عن دولة القانون يبرر أعمالاً سياسية تهدف إلى إعادة بناء وتجديد الجوهر الاجتماعى الذى يتشكل . هل يمكن أن نتساءل ما إذا كانت هذه الرؤية لا تذهب إلى حد إدخال – فى مفهوم دولة القانون – لعناصر أساسية ، تلك التى تعرف مسار الحضارة : ليس فقط رفض المواطنين اللجوء إلى العنف فى علاقاتهم الاجتماعية ، لكن أيضا الحد الأدنى من الدخل ، والثقافة والإعلام، والروح المدنية التى تشترط المشاركة فى الحياة العامة . إن دعم دولة القانون (الدفاع وتوسيع هذه المقدمات داخل المجتمع ، ومواصلة مسار حضارى) تستطيع ربما المساهمة فى تعريف مجمل أهداف العمل السياسى .

ومن الممكن جداً أن اليسار الذى يبحث عن تراكيب تسمح باستخراج لب وظيفتها على قواعد جديدة يجد عناصر للتفكير فى الحجج المقدمة ، فى هذه الصفحات حول موضوع دولة القانون ، على الأقل على المستوى الميتودولوجى ، ومع زوال اليوتوبيا الاشتراكية ، وبعد فشل التجربة التاريخية التى مال نحوها اليسار فإنه يبدو أن عليه (اليسار) أن يتخلى عن إيجاد الخلاص فى شكل آخر من المجتمع . لقد بيَّن التاريخ أن اليسار كان قادراً على أن يحمل للعمل العام مسئوليات أخلاقية التزامًا بالتحسين الواقعى للمجتمع ، وللمُثل التى حثت رجالاً ونساء على مواصلة أهداف عليا من أجل مصالحهم المباشرة .

إن التـأمل حـول الأفكار المتكـورة هنا وفي كـتب أخـرى ، يسـتطيع أن يسـتـهل البـحـث عن وصف جـيـد للغـايات ، إن تصـور دولة القـانون الذى سـيظهـر في هذه الصـفـحات يمكن بطريقة مـفـيدة أن يواجه بفكرة اليسـار كقوة في خدمة الحقوق ، كشعاع توتر نحو استكمال وتطور المواطنة. لفهم أفضل لفكر بوبر حول الديموقراطية ، حول الحدود بين دولة الحد الأدنى ، والدولة الأبوية ، وحول وسـائل الإعلام يجد القارئ في المـلحق مقـالاً لسنة ١٩٨٨ "مـلاحظات حـول نظرية وتطبيق الدولة الديمقـراطيـة" ، ومقـالاً آخر سنة ١٩٨٩ بعنوان "الحرية والمسئولية الفكرية" (مـقـالان غير منشورين بفرنسا) .

في النص الأول يعرض بوبر – بتـوسع أكـثر من الحديث الذى أجريتـه مـعــه – نقده للديمقراطية متصورة كنظام هيمنة على الشعب، ويـردد تميزه الشهير "من" يحكم، و "كيف" يـحكم . فيمـا يتعلق بالانزلاق الذى كان موضـوع درسـه في الفكر الليـبرالى يجب أخذ الصـفـحات التى يبحث فيها الفيلسوف عن نقطة توازن – بمساعدة كانط – بين تصـور سلبى للدفـاع عن الحرية ، وضـرورة تبـرير أشكال التدخل العـام الواسـعة نسبيًا . في المضيق الضيق الذى يفصل المتطلبات الشرعية لمناصرى دولة الحد الأدنى (الذين يعارضون الإخلالات بواجبات السلطة السياسية النزّاعة لإملاء قواعد سعادة المواطنين) وتعسفات دولة حد أقصى أو أبوية التى تطفئ الحرية، يلح بوبر على بديهية : العـمل السـيـاسى لا يمكن أن يجنب تحـديد حـريات المواطنين لأسـبـاب أخـلاقـيـة ، والصعوبة تتمثل في أنه للأسف مبدئيًا، ولأسباب أخلاقية، بدون حد أدنى من السلطة ، فإن الأمور لا تسـير سـواء تعلق الأمر بفرض حـمل حزام الأمن ، ومنع التدخين في الأماكن العامة ، وأخذ التدابير في ميدان الدفاع أو النظام العام ، أو رفع ضرائب من أجل تمويل الضـمـان الاجتمـاعى . فالعمل السياسى يبتعد حتمًا عن الفكرة المجردة لدولة الحد الأدنى .

فيجب إذن العنـاية بمراقبـة حدود هذا الهجـوم داخل التوتاليتارية بإقـامة – على سبيل المثال – المعيار : "لا سلطة أكثر مما هو ضرورى أخلاقيًا" ، ويجب تدعيم المثال الطوباوى لدولة الحد الأدنى ، الذى سيبقى "لن يكون إلا كمبدأ معدل منظم" للوصول إلى تفاهم بفضله "في مكان نسبة التفوق الأخلاقى لمبدأ دولة الحد الأدنى على الدولة

الأبوية المتعجرفة أخلاقياً ، ونعود فيها إلى التعارض القديم ما بين الدولة والحرية وإلى القاعدة المناهضة للديكتاتورية الكانطية التي تقول : «إن الحرية لا يجب أن تحد إلى الحد الذي ليس ضرورياً مطلقاً» .

إن الجزء من حديثنا الذي خصصه بوبر للانحطاط السوفياتي ولدور سخاروف قبل المنعطف ، الذي جعل واحداً من أبطال تغير الاتجاه الديموقراطي في الاتحاد السوفياتي قد أثار جدلاً والعديد من الاعتراضات . إن الاتهامات التي يوجهها ضد العالم الروسي اتهامات خطيرة وغير متوقعة ، أو زيادة على هذا مخالفة كلية للحكم الذي أصدره بوبر نفسه من قبل على سخاروف (الذي احتفل معه بعيد ميلاده الستين في خطاب ألقي بنيويورك سنة ١٩٨١) ، حججه حول دينامية أزمة الصواريخ الكوبية سنة ١٩٦٢ ، وحول نوايا خروتشوف ، والطريقة التي – حسب رأيه – تجاوز بها الفيزيائي النووي حدود المهمة التي أوكلت إليه قد تركت لتقدير المؤرخين والعلماء .

ومن الأفضل – ربما – لتفسير الحكم الحالي لبوبر حول سخاروف أن نذكر أنه في خطاب نيويورك حيّا فيه "مفكراً كبيراً ، فاعل خير كبير للإنسانية ، وبطلاً عظيماً ، وخصوصاً رجلاً عظيماً ومخلصاً ، نريد أن نقول له إننا سعداء بميلاده ، وبكونه حياً وبكونه يحارب من أجل عالم أفضل" ، كان بوبر يقدر وقتها أن العالم الروسي (الذي نعرف جيداً طبعاً دوره الحاسم في صنع القنبلة الهيدروجينية) قد كان له نفس سلوك الذريين الغربيين مؤسسي "نشرة العلماء الذريين" ، التي بموجبها يمكن الالتزام بصنع أسلحة نووية شريطة الوعي بالمشكلات التي تطرحها على الإنسانية ، وأكد أنه "على الأقل ابتداء من سنة ١٩٥٧ كرس سخاروف حياته للقيام بكل ما في وسعه لاختزال الخطر الأكثر رعباً الذي وجد النوع البشري" . في هذه اللحظة يمضي بوبر على الموافقة على الأسباب التي تحصل بموجبها سخاروف على جائزة نوبل سنة ١٩٧٥ ، وزيادة على هذا جعل الفيلسوف من سخاروف مثالاً حياً للإنسان الذي يعترف بأخطائه ، والذي هو إذن قادر على "تغيير الرأي تغييراً راديكالياً" .

وهنا يكمن –بالنسبة إليه– الفرق الأساسي "بين فكر دوجماتي وفكر نقدي" ، وإذا كان الأمر يتعلق بالموقف المتمثل في القيام بفحص نقدي منتظم لنظريته الخاصة ، وهو شيء نادر ، لكن برهن الفيزيائي أنه قادر ليس في الميدان العلمي فقط لكن أيضا في نظرياته الاجتماعية والسياسية . وبكل بداهة كان بوبر يجهل ما كان يجب عليه تعلمه ، وفيما بدا في مرايا سخاروف ، بموقفه في النقاش الذي قاد الاتحاد السوفياتي إلى إنتاج "القنبلة الكبرى" الهيدروجينية ، موقف ينضم إلى موقف "الصقر" الأمريكي Teller ، كتعارض مع أفكار أوبنهايمر Oppenheimer .

وختامًا لا يمكن أن ننسى أن نشير إلى صمت الثقافة الإيطالية ، والثقافة الفرنسية على الأقل حتى سنوات ١٩٧٠ (سواء يمينًا أو يسارًا) تجاه كارل بوبر . إن نصا مثل «المجتمع المفتوح وأعداؤه» لم يستطع أن ينشر بإيطاليا إلا سنة ١٩٧٤، ولم يصدر بفرنسا إلا سنة ١٩٧٩ ، وهذا يفسر مقدار سيطرة وهيمنة التاريخانية الماركسية أم لا ، التي ينتقدها بوبر بشدة ، أو بمقدار التأخر الذي مرت به الثقافة الإيطالية والفرنسية اليسارية قبل أن تتحرر من ثقل الستالينية .

القسم الأول

الحوار

١ – النزعة السلمية ، والحرب ، واللقاء بالشيوعية[١] :

– أعتقد أن هذه المحاورة يجب أن تبدأ بالمهم : نقدكم لماركس ، الذى اكتسى شكلاً نهائيًا فى أعمالكم السياسية ، وخاصة "المجتمع المفتوح وأعداؤه" . هل تستطيعون أن تفسروا لنا متى وكيف صممتم العنصر الرئيسى لهذا النقد ؟ متى وكيف اقتنعتم بضرورة هذا الهجوم ضد "النبوءات الخاطئة" من أفلاطون إلى ماركس مرورًا بهيجل ، الذى نظمتموه بطريقة منهجية فى هذا الكتاب الصادر سنة ١٩٤٥ ؟

– كارل بوبر : هذا السؤال يرجعنى إلى زمن بعيد إلى جويلية ١٩١٩ ، وقتها لم أبلغ بعدها سن السابعة عشرة ، طبعًا لم يكن لدى بعد الرأى الذى دعّمته فيما بعد ، فى "المجتمع المفتوح وأعداؤه" ، لكن مع ذلك قبل عيد ميلادى السابع عشر ، فى جويلية ١٩١٩ بالتحديد رأيت من الضرورى القيام بنقد للماركسية ، وإعادة النظر فى موقفى تجاه هذه النظرية . وهكذا بعد فترة وجيزة فى فيفرى ١٩٢٠ تبنيت بشكل كبير الموقف الذى طوّرته طيلة حياتى ، ترون إذن أنه ليس وليد الأمس ، وقلائل اليوم هم الذين يستطيعون تذكر وقائع هذه الحقبة ، إنها تقريبًا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى.

– كيف كان موقفكم من موضوع الحرب ؟

لقد كنت محبًا للسلام فى وقت كنت فيه تقريبًا طفلاً ، حتى قبل اندلاع الحرب ، والدىّ كانا محبين للسلام ، وكان فى مكتبة أبى كتب ضد الحرب ، لأنه كان خصمًا عنيدًا للنزعة العسكرية النمساوية . عندما اندلعت الحرب انتابنى الخوف ، ونبهنى ناقوس خطر رؤية كثير من الناس من حولى أصدقاء لعائلتى ، أخذوا منعرجًا بدرجة انحراف مئة وثمانين درجة ، وأصبحوا أنصارًا للحرب . يوم عيد ميلادى أرسل لى

(١) ترجم هذا النص الأستاذ لخضر مذبوح .

والدى رسالة من ڤيينا (كنا فى عطلة) ، شرح فيها أنه لا يستطيع الالتحاق بنا لأنه "لسوء الحظ – كما قال – هناك حرب" ، والطريف أن هذه الرسالة كتبت عشية عيد ميلادى ، والحرب اندلعت فقط – نعم أعتقد جيداً أن هذا ماحدث – فى نفس يوم عيد ميلادى ، يعنى هذا أنه كان متأكداً قبل ذلك بساعات قليلة أن الحرب وشيكة ، وبعد فترة وجيزة من الزمان التحقت بڤيينا ، بمدرستى التى كان فيها الجميع مع الحرب .

– أنتم أيضا إذن قد تأثرتم بهذا المناخ ؟

– لم أكن عديم الإحساس كلية ، لقد أثر فىَّ بالطبع بعض الشىء ، لكن ليس إلى درجة يحملنى فيها إلى ماوراء الأمل فى سلم سريعة ، التى بواسطتها اعتقدت وقتها أننا نحن –الإمبراطوريات الوسطى– سنربحها طبعاً ، على الرغم أنه فى نفس الوقت ، خلافا للعديد من الآخرين ، لم تكن فى ذهنى فكرة انتصار حقيقى .

– هل أنتم متأكدون من تذكر أفكاركم وقتذاك حول الحرب ؟

– كل هذا أعرفه ؛ لأنه فى تلك الحقبة كتبت قصيدة أتذكر بعضًا من أبياتها ، قصيدة تسمى "الاحتفال بالسلام" ، لقد كتبت أقول أن كل الأعداء سيعودون إلى ديارهم ، وأننا سيكون لنا السلام ، لكن لا شىء فى هذه القصيدة يمثل السلام كشىء حماسى بالنسبة لنا ، وأعرف أيضًا أننى كتبت هذه القصيدة فى شهر أكتوبر ١٩١٤ ، وأنه بسرعة فى بداية السنة الموالية أحسست بنفسى محرجًا ، حيث بلغ بى الاعتقاد حتى درجة التسليم بفكرة النصر ، وفكرة أن الأعداء سيعودون إلى ديارهم مهزومين ، هذا ماكان موجوداً فى مخطوط النسخة الأولى لهذا النص (القصيدة) ، وهذا يعنى أننى أصبحت بسرعة خصمًا حقيقيًا – إن استطعنا القول – لفكرة هزيمة أعداء الإمبراطوريات الوسطى .

– ما الذى حثكم على معارضة الحرب بطريقة أكثر راديكالية ؟

– لقد كان لى مع والدى ما بين ١٩١٥ – ١٩١٦ حوارات طويلة حول الآفاق المستقبلية الممنوحة لنا ، والنقطة المهمة فى هذه الحوارات كانت بالنسبة لى (الذى يفكر طبعًا كطفل) أن الذين هم على حق سينتصرون ، ولم يكن هذا محل شك . لقد كانت وجهة نظرى طبعًا بريئة جداً ، لأننى بداية من الشهور الأولى لسنة ١٩١٨

أدركت بعد غزو بلچيكا أن حلفًا مخالفًا للاتفاقيات الدولية قد تم ، وأنه كان خرقًا للمعاهدات، هذا أقنعني أننا نحن الذين كنا على باطل، وأن معسكرنا هو الذى أخطأ ، واستنتجت من هذا إذن وجوب خسارتنا .

– حتى الآن ، منذ بداية هذه المحاورة ، لم نتحدث بعد عن الشيوعية ، متى اتصلتم أول مرة بأفكار ثورة أكتوبر ؟

– خلال معاهدة "بريست – ليتوفيسك Brest-Litovsk" ، فى لحظة الاتفاق مابين الإمبراطوريات الوسطى وروسيا ، كان عمرى يناهز الخامسة عشرة ، لقد انفعلت بخطابات الروس فى نـدوة السلام . إنه "تروتسكى" طبعًا ، والذى بهذه المناسبة عبّر عن الأفكار الأكثر أهمية التى نشرت بطريقة تدعو للفضول بالنمسا (لا أعلم إن كان الحال كذلك بألمانيا ، بدون شك نعم) . إن هذا هو ماجذبنى أولاً نحو الشيوعية ، لكن كان لى صديق ولد بروسيا ، كان واحداً من قادة الطلبة خلال ثورة ١٩٠٥ ، كان يحذرنى من الشيوعيين بقوله لى إنهم مستعدون للقيام بأى شىء بما فيه الأسوأ ، مادام هذا يخدم الحزب . والحق يقال لقد أخذت تحذيراته بشىء من الشك ، والسبب بالضبط يعود للأثر الذى ولّدته فىّ خطابات برست ليتوفسك .

– إن الاتصال الأولى بالشيوعية قد تم إذن ، و إن ماجذبكم هو أنه فى خطابات الروس حديث عن السلام ، ولأنك تحتقر فكرة الانتصار العسكرى ؟ !

– لقد كنت من وقتها فى مواجهة المشكلة التى فيما بعد استرعت اهتمامى أكثر من غيرها ولازالت تسترعى اهتمامى إلى الآن وهى : الشيوعية نعم أم لا ؟

– وأصبحتم شيوعيين ؟

– بعد استتباب السلم بفترة وجيزة فى ١٩١٩ توجهت إلى مقر الحزب الشيوعى النمساوى ، وعرضت عليهم مساعدتى لهم، كان من ضمن القادة الشيوعيين وقتها ثلاثة أشخاص : "جيرهارد إسلر Gerhard Eisler" و "هانز إسلر Hans Eisler" وأختـه "فريتى Fritti – كنية لـ الفرياد Elfreide" – زوجة "فيرلياندر" ، التى كانت ربما مطلقة ، لقد كانوا الأبناء الثلاثة لفيلسوف نمساوى هو "ردولف إسلر Rudolph Eisler" . ولنذكر فى سياق حديثنا أن جيرهارد كان سيصبح رئيس الحزب الشيوعى الأمريكى

قبل أن يطرد من الولايات المتحدة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية . أخوه الصغير هانس كان واحداً من أكبر موسيقيى ألمانيا الشرقية ، فى حين كانت فريتى فرايدلندر التى كانت تحمل اسم "روث فيشر" رئيسة الحزب الشيوعى الألمانى هى الأكثر نبوغًا بين النساء ، إن لم أبالغ .

– كل هذه الشخصيات يبدو لي أن لا أثر لها على سيرتكم الذاتية التي تتحدثون فيها عن "الأصدقاء الشيوعيون" بصفة عامة ، لماذا تتعرضون إليهم الآن ؟

– لأن هذه اللقاءات كانت هامة جداً ، لأنهم عاملونى بكثير من اللطف ، ولأنهم فتنونى ، ولأننى فى مرحلة أولى صدقتهم . لكننى أدركت بسرعة أنه يكفى برقية من موسكو لجعل الثلاثة يغيرون مواقفهم بصفة راديكالية ، وأن يكونوا مستعدين للدفاع عن عكس ما أكدوه البارحة ، وكذلك باتجاه الأشخاص أيضا ، يغيّرون كلية الموقف من يوم لآخر . باختصار لم يكن لديهم إلا مبدأ واحد : التأييد المطلق لموسكو ضد كل الرياح والأمواج بدون أدنى تردد ، لقد كانوا مستعدين لتأييد العكس فى كل وقت . عندما أدركت هذا زعزعنى فى أفكارى تجاه الشيوعية .

– على ما أفهم الإخوة إيسلر كانوا أشخاصاً ذوى مستوى فكرى معين ، سلوكهم هذا حثكم إذن على البحث على هذه التغييرات المفاجئة ، داخل الأيديولوجية الشيوعية أكثر من البحث عنها فى طباعهم . هل كان هذا هو نقطة انطلاق التحليل الذى أكملتموه فيما بعد فى «المجتمع المفتوح وأعداؤه» ، لقد حان الوقت ، ربما لتقولوا لنا فيما يتمثل نقدكم العظيم تجاه الماركسية ؟

– نعم ، هاهو فيما يتمثل : تنبأ ماركس بأن الاشتراكية أو الشيوعية – لا يهم المصطلح الذى نستعمله هنا – كشكل لديكتاتورية البروليتاريا يجب أن تتحقق ، لقد كانت الضرورة التى يمكن أن تقام بكل يقين من خلال دراسة التاريخ والاقتصاد، يمكن البرهنة عليها، الشيوعية هى شىء يجب أن يحدث ، الرأسمالية هى شكل مجتمع غير مقبول ، يجب أن ينتهى ، هذا مايجب أن يحدث ، وبعد انبثاقها سيكون هناك مجتمع رائع ، جديد كلية ، فى داخله يتحاب الناس ، يحبون بعضهم بعضا ، ويسود السلام على الأرض . تلك كانت نواة المذهب ، وتنبؤ ماركس يمكن تأسيسه بكل يقين علمى كلية، هذه هى النقطة الهامة ، وهو السبب الذى به عرفت المذهب الشيوعى كفخ ، كنوع من فخ الفأر ، ولقد كنت الفأر .

– لقد كتبتم حول هذه الحقبة فى سيرتكم الذاتية : "لقد فهمت لب الاستدلال الماركسى ، إنه يتمثل فى نبوءة تاريخية ، مشتركة مع نداء ضمنى ، إلى القانون الأخلاقى التالى : أيدوا المحتوم !" يمكن أن يسمح هذا بفهم أفضل لفكرتكم عن "الفخ" ؟

– المذهب الشيوعى هو اعتقاد بظهور عالم أفضل يقال أنه مؤسس على قوانين الصيرورة التاريخية . إذا كانت هذه النواة فعلى كل واحد واجب بديهى – وخصوصاً الذين هم مثلى يكرهون الحرب والعنف – أن يؤيد الحزب الذى سيحقق أو سيساهم فى تحقيقه . إن هذا هو الأمر الواقع الذى يجب بكل الطرق أن يحدث ، وإذا قاومت شخصية – علماً بأن الأمر يتعلق بشىء حتمى – فإن هذا جريمة ، لأنها تقاوم شيئاً يجب أن يحدث ، وتصبح بهذه المقاومة نفسها ، مسئولة أو مشتركة فى المسئولية عن العنف العنيف ، وعن كل الموت الذى سيحدث حتى تقام الشيوعية . يجب أن تأتى الشيوعية، يجب أن تقام ، ويجب إذن أن تأمل أن يكون هناك الحد الأدنى من المقاومة ، وعدد أقل قدر الإمكان من الذين يضحى بهم . وأيضاً لقد فهم كل واحد أن التنبؤ يمكن البرهنة عليه علمياً وأن الاشتراكية يجب بكل الطرق أن تصبح واقعاً ، ومن واجب كل واحد تسهيل ظهورها ، ومن أجل هذا يتصرف الشيوعيون بطريقة غريبة ، ويتناقضون من يوم لآخر، كل شىء كان مبرراً ، لأنهم سيساعدون الشيوعية على الاستيلاء على الحكم . لقد أدركت أن هذه هى النقطة الرئيسية ، المسألة الحاسمة فى التاريخ ، والسبب الرئيسى لكل نشاط ، وهذا مايبرر كل الاختيارات، فى الواقع لم يكن فقط تبريراً – لأنه من الواضح أنه يمكن أن نخطئ – وحتى القادة الشيوعيين يمكن أن يرتكبوا أخطاء ، لكن هذا يظهر هذه الأخطاء كأخطاء ثانوية . الشيوعيون يحاربون من أجل شىء يتوجب أن ينتهى بالتحقق ، هذا ما أسميته الفخ ، والذى وقعت فيه لفترة وجيزة أنا أيضاً .

– شهور قليلة ثم غيّرتم فكرتكم ، ماذا حدث خارج التقلبات التى تعرضتم لها من أصدقائكم ؟

– بدأت سلسلة من الأحداث مثيرة للجدل جداً، بـ "فيينا" : أُوقف بعض الشيوعيين ، واحتفظ بهم بمحافظة الشرطة ، لنر هــذا : قرر الحزب تنظيم مظاهرة للمطالبة بإطلاق سراحهم ، مظاهرة شارك فيها خصوصاً الشباب ، وخلال هذه المظاهرة أطلقت الشرطة النار وقتل ستة شبان ، لقد رأيت ماحدث، لأننى أنا أيضاً كنت ضمن المتظاهرين ، ودفعنى هذا إلى التفكير فى سيرة القادة الشيوعيين ، كلما حدثت أشياء فظيعة ،

كان الأمر أفضل ، لأن هذا يساعد على التهييج (وهو عامل ضرورى) للثورة الكبرى، فلم يحسوا إذن بالندم كثيراً حول موضوع ماحدث ، فى حين أحسست أننى كنت مسئولاً عن موت هؤلاء الشبان .

– هذه النقطة ليست واضحة تماماً لا فى سيرتكم الذاتية ولا فى أحاديثكم السابقة ، أين تعرضتم إلى هذه الحلقة من حياتكم ، لأنكم كملخص لذلك قررتم الابتعاد عن الشيوعية ، فى نفس الوقت الذى كان فيه الشبان الشيوعيون يموتون من قبل شرطة فيينا ، فى هذا اليوم لم يطلق الشيوعيون النار ، لكن كان لهم ضحايا فى صفوفهم ، وعلى وجه التحديد من هنا ، تخليتم عنهم ، أليس هذا مثيرا للفضول ؟

– لقد عبرت عن شعورى بالمسئولية ، لأننى كنت أعتقد أن من حقنا التضحية بأنفسنا ، وأن نعرض حياتنا للخطر ، لكننا شجعنا أشخاصاً آخرين لمواجهة الخطر ، وليطلق عليهم الرصاص ، وهذا مالم يكن من حقنا فعله . القادة الشيوعيون لم يكن لهم الحق أن يقولوا للآخرين أنه يتوجب عليهم التضحية وتعريض حياتهم للخطر، هؤلاء الشبان الذين سقطوا كانوا عمالاً ، ونحن مثقفون ملتزمون بوجه ما بالماركسية ، نفكر (بصفتنا ماركسيين) بالقدرة على الحكم من أعلى جداً، خبط "عشوائى" بلا تمييز. فى تلك الحقبة كنت أتردد على الجامعة ، كنا طلبة ، نستطيع قراءة كتب ضخمة ، ونحس أن من حقنا أن نقول للناس : "هاهو ما سيكون : الشيوعية يجب أن تأتى ، ويجب علينا أن نسبب ظهورها بالنضال" ، لقد أدركت أننا كنا مسئولين عن هؤلاء الناس الذين كنا ندفعهم للمجازفة . وبدأت أتساءل : "هل الأمر حقا هكذا ؟ هل أنا قادر حقًا على التأكيد على قيمة البراهين الماركسية القائلة أن الشيوعية ستحدث ضرورة ؟ هل أستطيع أن أذهب لرؤية الناس الذين لا يستطيعون قراءة ماركس ، وأقول لهم : لقد تحققت وجربت وراقبت ماركس بصفة نقدية ، وأستطيع أن أؤكد لكم أن مايقوله صحيح ، وأن براهينه صحيحة ، الشيوعية ستقام وسننتصر ، مع كل ما يتضمنه هذا" ؟

– وماذا فعلتم إذن ؟

– لقد قررت دراسة ماركس بعمق ، وهو مالم أقم به فى هذه الفترة ، لقد استعملت ماركس ، لقد توجب علىَّ استعماله ، لكن لم يكن لدى إلا معرفة سطحية به ، وكان يجب على الآن أن أدرس مذهبه وبراهينه بعمق .

٢ – الانتقادات الأساسية للماركسية[1] :

– في هذا الوقت بدأتم تحددون العناصر الأساسية لنقدكم للماركسية ، كيف أجريتم ذلك أو كيف توصلتم إلى ذلك ؟

– لقد بدأت في دراسة "الرأسمال Le Capital" وانتهيت إلى خلاصة مؤداها أن أطروحته الأساسية ، أو لنقل أطروحته «رقم ١» هي كالتالي : الرأسمالية لايمكن إصلاحها ، ولايمكن إلا هدمها أو تحطيمها ، وإذا كنا نصبو إلى مجتمع راق يجب تحطيم الرأسمالية ، والأطروحة الأساسية الثانية ، أو الأطروحة «رقم٢» هي المتعلقة بالإفقار المتنامي ، وبحسبها تكون شروط أو ظروف العمال تزداد سوءاً بعد سوء ، وهذا ما يستبعد كل إصلاح ممكن للرأسمالية ويسمح فقط بتحطيمها. كما أنني استخرجت من خلال هذه الدراسة أطروحة أخرى هامة ومفيدة جداً وهي : لايجب تجريم وتوبيخ الرأسماليين شخصياً ؛ لأنهم هم أنفسهم ضحايا النظام ، يجب التذكير بهذا ؛ لأن الشيوعيين لم يأخذوا ذلك بعين الاعتبار ، وأنه تاريخياً لايمكن الشك في أنهم أدانوا الرأسماليين على المستوى الفردي ، وحاولوا أن يثيروا المقت والنفور والاشمئزاز تجاههم ، في حين أن ماركس قد ساند فكرة أن الرأسمالية هي نوع من الآلة الساحقة للرأسماليين والعمال على السواء، وأنهم لايستطيعون فعل أي شيء خارج ما تمليه عليهم الآلة . لقد كانت هذه الأطروحة في تناقض مع أحد المعالم الأساسية في الدعاية الشيوعية ، بالرغم من أن ماركس ذاته رفض ما وصفه بـ «بالماركسية المبتذلة» ، وفكرة أن الرأسماليين سيئون وأنهم يستغلون الناس بالخداع . ولكن في الواقع أو بالفعل «الماركسية المبتذلة» كانت هي التصور المدعم والمساند من قبل الحزب الشيوعي . ولقد كان الحزب يرى أن من حقه أن يساند هذه الفكرة – فكرة أن الرأسماليين مسئولون شخصياً – لأنه كان يعتقد أن له الحق في كل ما من شأنه أن يساعده على طريق الثورة أو على التعجيل بالثورة ، وهنا يكمن الفخ والمصيدة والشرك والمكيدة . وظيفة الحزب تسمح له بإثارة الأحقاد الكثيرة والكره الكبير حتى يمكّن من قدوم الشيوعية ، هذا هو ملخص الموقف الأساسي الذي توصلت إليه بعد دراسة ماركس .

(١) ترجم هذا النص الدكتور الزواوي بغورة .

– ولكنكم لم تعددوا كل العناصر الأساسية لنقدكم ، هنالك عناصر أخرى فيما بعد أو تابعة لهذه أو لاحقة بها .

– هنالك انتقادات أخرى والتى أعتقد أنها مهمة، إنها تلك الأطروحة التى عرضتها بعد نشر كتابى "المجتمع المفتوح وأعداؤه La Societé ouverte et ses ennemis" إنه تطور لاحق ، وهاك تحديداً ما يتعلق به الأمر: الرأسمالية كما وصفها ماركس لم توجد على الإطلاق ، وإنما هى محض اختلاق نوع من الخيال الشيطانى أو الرواية الشيطانية ، صحيح أنه كان هنالك دائمًا أغنياء وفقراء ، وأن الفقراء يعانون دائمًا ، وأن الأخلاق تقتضى أن نساعدهم وأن نساعد المعوزين . واليوم مايزال هذا المشكل مطروحًا علينا كذلك، ويجب التدخل إلى جانب هؤلاء المعوزين، إلا أننى لا أعتقد اليوم أن الأمر يتعلق بالعمال ، صحيح أنه حتى اليوم هنالك من هم فقراء – وسنرى لاحقًا من هم هؤلاء الفقراء – ولكن مشكلة المجاعة وظروف العمال لا تطرح كما كانت تطرح فى زمن ماركس ، مع مراعاة الفارق فإن مجتمع تلك الحقبة كان منكوبًا ومشئومًا ، ولا جدال فى ذلك ، ولكن هذا لم يكن موضوع ما وصفه ماركس بالرأسمالية التى لايمكن إصلاحها ، هذا المجتمع يمكن إصلاحه ، فى حين أن الأطروحة المركزية لماركس هى أنه لايمكننا إلا تحطيمه . لاحقًا وافق أو قبل بأن إنجلترا يمكن أن تحدث فيها ثورة غير عنيفة ، وهو مايعنى أن المجتمع الرأسمالى يمكن إصلاحه . لم يقل هذا بشكل صريح ولكنه بيّن أنه من الممكن أن يحدث التغيير من دون عنف ولكن فى إنجلترا فقط ، وليس فى أى مكان آخر .

وبالفعل فإنه خلال حياة ماركس هنالك إصلاحات كثيرة حدثت ، إصلاحات هامة وكبيرة فى إنجلترا وفى غيرها من البلدان وخاصة فى ألمانيا فى عهد "بسمارك "Bismarck" ، إن ما قاله فى موضوع الرأسمالية التى لايمكن إصلاحها قد تم رفضه من قبل الواقع وهو على قيد الحياة ، وهو ما يعنى أن ما كان يسميه بـ «الرأسمالية» ، هذا المجتمع حيث الرأسماليون والعمال محكوم عليهم ضمن آلية لا تعمل إلا على الحط شيئًا فشيئًا من وضعيتهم ، هذا المجتمع لم يكن له أبداً وجود ، ذلك أن هذه الأطروحة المتعلقة

بالتدهورعند ماركس تنطبق حتى على الرأسماليين أنفسهم بحيث يتم إقصاء الكثير منهم . «الرأسمالى يحدث الكثير من القتلى» ، لقد كانت هذه إحدى الصيغ أو العبارات المعروفة عند ماركس ؛ لأنه كان يعتقد أن الرأسماليين سيقلّون شيئًا فشيئًا ، وأن الناس سيصبحون إما ضحايا هذه العملية أو بروليتاريين . إلا أن مثل هذا المجتمع لم يوجد على الإطلاق ، وإننا نخطئ عندما نصنف مجتمعنا بأنه مجتمع رأسمالى ؛ لأنه يجب أن نفهم من هذا اللفظ المعنى الماركسى ، وهذا المعنى لا ينطبق على مجتمعنا . هذا هو النقد الرئيسى الذى أرفعه ضد الماركسية ، ويمكن لنا أن نضيف نقدا آخر ويتعلق الأمر بفكرة ماركس والتى بحسبها يكون الرأسماليون هم الديكتاتوريين المتسترين بالدولة ، وأن الدولة فى ظل الرأسمالية ديكتاتورية مسيَّرة من قبل الرأسماليين . إن هذه الفكرة ليست أكثر من رؤية فكرية ، فليس هنالك أى مجتمع للرأسماليين فيه كامل السلطة السياسية ، إن الواقع أكثر تعقيداً من هذا ، ولم يكن أبداً بهذه البساطة التى اعتقدها ماركس ، يجب الاعتراف بأنه هو الذى أدخل فى العلوم الاجتماعية وفى فهم التاريخ فكرة جد هامة وهى أن للشروط الاقتصادية تأثيراً كبيراً على العديد من ملامح الحياة والمجتمع . هنا وضع مبدءًا مخالفًا - على سبيل المثال - لكل ما قاله المؤرخون قبله ، وإنه لمن الصحيح القول أنه قبل ماركس ليس هنالك تاريخ اقتصادى جدّى ، ولكن ككل الرواد لقد دفع باكتشافه هذا إلى مبالغات كبيرة مرجعًا كل الأسباب إلى المجال الاقتصادى ، لقد كان يعتقد أن للاقتصاد قيمة تفسيرية كلية أو كونية ، وهذا من دون شك خطأ ، لأنه فى المجتمع - والذى هو واقع جد معقد - هنالك عوامل أخرى جد مؤثرة مثل الدين والقومية وعلاقات الصداقة والزمالة ، كانت تدرس فى نفس المدارس . ففى "فيينا" - على سبيل المثال - كل القادة الاجتماعيين الديموقراطيين تتلمذوا فى نفس المدارس وكانوا أصدقاء منذ سن الدراسة ، وفى إنجلترا نجد لجامعة "أكسفورد" تأثيراً معتبراً فى السياسة : تقريباً كل رجال السياسة لجميع الأحزاب كانوا أصدقاء أيام الجامعة أو فى مرحلة الدراسة الجامعية ، مثل هذه العناصر تلعب دوراً فى المجتمع ، والفكرة التبسيطية القائلة بديكتاتورية الرأسماليين لا تتناسب على الإطلاق مع الواقع .

٢ – سنة ١٩٦٢ ، خروتشوف والانحطاط السوفياتي[1] :

– لقد استخرجنا بوضوح نقدكم لفخ الفأر، وشرحتم لنا كيف وقعتم فيه ، وكيف تحررتم منه فيما بعد ، لقد حان الوقت الآن للتعرض لمسألة الشيوعية السوفياتية ، وفحص كيف خرجت بلدان كاملة وملايين الأشخاص منها .

– هذه هي النقطة التي أرى أنها مهمة اليوم : أسباب الانحطاط السوفياتي ، لكن لتحديدها يجب أولاً رؤية كيف أصبحت الماركسية في روسيا ، هذا المذهب خصوصا في مرحلة أولى كان مادة فكرية ، استحث كمية كبيرة من الدراسات ، وأخذت أشكالاً متنوعة متطورة ، خصوصًا بألمانيا، بفضل أناس مثل "كارل كاوتسكي" و "إدوارد برنشتاين" . في روسيا وإيطاليا أيضا عرفت الماركسية تطوراً هامًا ، لكن ألمانيا هي التي كانت في مقدمة الصف ، والتي استخرجت منها فلسفات ، وتأسست أشكالٌ متعدد ومبدعة لأدب وفير. في روسيا طبعا، مع الشيوعيين في الحكم، أصبحت في الجامعات وعلى كل مستويات البرامج الدراسية مذهبًا مرسخًا في أذهان كل الشباب ، وفي حقبة أقرب إلينا هي حقبة خروتشوف ، وهي الفترة التي أرجعت إليها بداية الانحطاط السوفياتي ، أعتقد أن لا أحد من فريق القيادة السوفياتية كان يأخذ الماركسية مأخذ الجد إن لم تكن إلا وسيلة لتدعيم النظام ، وإطالة بقاء الأشياء .

في الواقع هناك نقطة ، ونقطة واحدة أخذت مأخذ الجد وهي فكرة أن العدو الرأسمالي يجب أن يدمر ، ويتعلق الأمر بعدو طبعًا عرف بالدول الكبرى الرأسمالية، يعني إجمالاً الولايات المتحدة وبريطانيا اللتان يجب تدميرهما بالنتيجة، وباقي النظرية قد انحل عمليًا ، ما عدا هذا المبدأ . في كتاب "مذكرات غير منشورة" لخروتشوف هناك صيغة بسيطة جداً هي مفتاح كل الكتاب :

القضاء على النظام الرأسمالي هي المسألة الحاسمة في تطور المجتمع ، وكان على خروتشوف أن يقول : "تطور التاريخ" وليس "تطور المجتمع" ، لكن المعنى واحد ، والتمييز بكل بداهة ليس محدداً ، إنها طريقة أخرى للقول أن التاريخ يشترط القضاء على الرأسمالية .

(١) ترجم هذا النص الأستاذ لخضر مذبوح .

– لقد شك البعض في أصالة هذا الكتاب ؟

– من جهتي ليس لدى أى شك حوله . إن تزوير أو انتحال هذا النص كان عملية محيِّرة ، إنه يحوى على أكثر من ستمائة صفحة (٦٠٠) ، ويحتوى على كثير من التفاصيل والإشارات إلى وقائع ، بما فيها مكالمات ستالين ، ولاختلافها كان يتوجب القيام بأبحاث خلال سنوات وسنوات . في الواقع طرح التزوير لم يؤيد أبدا ، حتى وإن كانت قصة الكتاب غريبة : لقد خرج سريا من الاتحاد السوفياتي ، وظهر لأول مرة – في حدود علمي – بالإنجليزية ، أعتقد أن الذين يعرفون شيئًا عن تاريخ روسيا يعتبرونه أصيلاً، ولأجل هذا نستطيع أن نفترض أن كاتبه نفسه هو الذى يحكى حياته، ويقدم أفكاره ، ويتعلق الأمر بكتاب – أكثر من كتب أخرى – يسمح لنا بفهم هذا القرن ، وخصوصاً لحظة الانفلاق الأعظم للمتعرج الكبير : أزمة كوبا سنة ١٩٦٢ .

– لماذا تعتبرونه أكثر أهمية ؟

– بالنسبة لى هنا خسر الاتحاد السوفياتي الحرب خلال هذه المحاولة لتدمير أمريكا، ومع هذه المحاولة انهارت الفكرة الماركسية الوحيدة التى بقيت ، إنه من هذه اللحظة بدأ الانحطاط الذى أدّى إلى الانهيار العام ، لأنه فى هذه اللحظة بالذات فقط كان للاتحاد السوفياتي الفرصة التي لم تمنح له أبدا من قبل : فرصة تدمير الولايات المتحدة ، فالسوفيات لم يأملوا أبدًا فى تحقيق هدفهم – المهمة التى أوكلها إليهم التاريخ – ما داموا لم يمتلكوا قنبلة سخاروف ، هذه القنبلة التي يتحدث عنها الفيزيائي الروسي في مذكراته ، هذا الكتاب الذى جعلني أغيِّر رأيي حول دور هذا الرجل ، أعتقد أنه كانت له مسئوليات إجرامية .

– تتحدثون عن رجل نال سنة ١٩٧٥ جائزة نوبل للسلام ، والذى أنتم أنفسكم قدمتم له مدحًا كبيراً فى سنة ١٩٨١ بحديثكم عنه كـ "مفكر وإنسانى عظيم وبطل كبير"، الكل قد كان يعرف أن سخاروف كان صانع القنبلة الهيدروجينية ، لماذا غيَّرتم رأيكم اليوم ؟

– أحتفظ بفكرة رفيعة عما قام به في هذه العشر سنين الأخيرة ، لكن كما سترون هناك في هذا الكتاب عناصر أرغمتنى على تغيير رأيى، إن حالة سخاروف مهمة جداً ،

لا نستطيع أن نتعرض لكل مظاهرها هنا ، وسيكون من مهمة المؤرخين تعميق هذه المسألة ، أريد فقط أن أذكر على سبيل المثال ماكتبه حول موضوع "القنبلة الكبرى" في مذكراته : "لقد قررت تجريب نسخة "خاصة Propre" : قنبلة ذات قوة مختزلة ، لكن القنبلات الكبرى تتجاوز أيضا تجاوزا بعيدا كل شحنة جرّبت سابقا ، وستكون آلافا عديدة أكثر قوة من القنبلة الملقاة على هيروشيما"(٢) . ماذا يعني "آلافا عديدة" ؟ نستطيع أن نفترض أن هذا يعني على الأقل ثلاثة آلاف مرة ، إنها فرضية بالغياب ، لأن سخاروف لم يكن له مزاج مثير للجدل ، ولاعتبارات عديدة لم يكن محمولا على المبالغة ، فإذا قال "آلافًا عديدة من المرات" ، وبخصوص "نسخة" للقنبلة الأضعف بقليل من النسخة التي كان قادراً على إنتاجها، يعني هذا أن قنبلته الهيدروجينية كانت بكل تأكيد ثلاثة آلاف مرة أكثر قوة من قنبلة هيروشيما . لقد جربت هذه القنبلة في سبتمبر ١٩٦١ ، لقد اشتغل فيها سخاروف طويلا تحت قيادة ستالين، وتعاون مع "بيريا" الذي كانت له معه أحاديث خاصة في مناسبات عديدة خلال ساعات وساعات ، وبعد سنوات من التجريب كان الاختبار الحاسم سنة ١٩٦١ ، كان خروتشوف طبعا على علم بكل شيء، لقد كتب في مذكراته غير المنشورة ، بعد أن علم بالنتيجة الإيجابية لهذا الاختبار : "إنه خلال زيارة لبلغاريا جاءتني فكرة وضع صواريخ ذات رءوس نووية بكوبا ، بدون أن يعلم الأمريكان بذلك ، وحتى يكون قد فات الأوان لكي يستطيعوا فعل أي شيء لنا" .

– الاختبار قد نجح ، وخروتشوف كانت له فكرة كوبا ، كيف فسّرها المؤرخون، هذه الفكرة جاءت من بلغاريا ، مع التفكير في القذائف النووية الموضوعة ليس بعيداً من هنا ، بتركيا ، ماذا كان هناك من جديد في هذا المشروع؟

– إن الجدة تكمن في البعد الحقيقي للقوة النووية السوفياتية ، في هذه اللحظة بالذات سنة بعد تجريب القنبلة ينتقل خروتشوف لتحقيق فكرته ، نُقلت القنابل سراً إلى كوبا ، وأمكن وضع ثمانية وثلاثين رأسًا نوويًا ، حتى وإن كانت غير جاهزة للإطلاق قبل أن يكتشف الأمريكان ما يجرى ، خروتشوف نفسه كتب بهذا الخصوص "لم يكن

(٢) في هذا المقطع يتحدث سخاروف عن سنة ١٩٦١ .

لدينا الوقت لإيصال كل سفننا إلى كوبا" ، لكن يضيف "لقد وضعنا من قبل صواريخ لتدمير نيويورك، وشيكاغو ، والمدن الأخرى الصناعية ، دون الحديث عن قرية صغيرة مثل واشنطن" ، وحتى لو عبّر من بعد بطريقة مختلفة فإن الزعيم السوفياتي قد قام مرّة ثانية بهذا الاعتراف " أعتقد أن أمريكا لم توجد أبدا ، مثل ماوجدت في هذه اللحظة بالذات في مواجهة تهديد حقيقي بالتدمير " ولذلك يجب علينا أن نقوم بالحساب التالي : كل رأس من الرءوس الثمانية والثلاثين الموضوعة قبل بعين المكان بكوبا ، كان ثلاثة آلاف مرة القوة المستخدمة في هيروشيما ، وهذا يعني قوة تدميرية كامنة تساوي ١١٤٠٠٠ مرة قد قنبلة هيروشيما قد نجح في التوصل في إرسالها .

– وإن التاريخ خلال هذه الأزمة كان قاب قوسين أو أدنى من الكارثة ، نعرف هذا قبل ...

– لكن ماكان يجهله "جون كينيدي" الرئيس ، وحتى "روبير" أخوه ، الذي لعب دوراً كبيراً في هذه القضية ، ومؤلف كتاب " ثلاثين يوماً Thirteen days "[٣] – كتاب آخر مهم حول مسألة صواريخ كوبا – لقد كانت القوة النووية الكامنة السوفياتية، بكل تأكيد كانا يعرفان أنها كانت إمكانيات كبيرة ، لكن لا أعتقد أنهما كانا يدركان مداها هذا مانعرفه الآن بفضل المعلومات التي أعطاها لنا سخاروف سهوا في هذا المقطع، معلومات لم أعثر عليها في مكان آخر ، حتى في كتاب أحدث منه ، والموثق جيدا حول هذا الموضوع "كينيدي إزاء خروتشوف Kennedy Versus Khrutchev" لميخائيل بيشلوس[٤] .

– تريدون القول أن لا أحد من المؤرخين أشار إلى هذا المقطع في مذكرات سخاروف ؟

– لا أريد مهاجمة المؤرخين بحكم أنه لم يكن لهم الكثير من الوقت ، لكنني لم أر أية دراسة نقدية تشير إلى هذا المقطع .

(٣) ROBERT Kennedy, Thrteen days a mémory of the Cuban missils crisisn New York Norton, 1969.

(٤) M. Beschlos, Kennedy versus the crisis years 1962-1963, New York, Faber & Faber. 1991.

– غيرتم رأيكم حول سخاروف بسبب قوة قنبلته ؟ كنا نعرف بعد أن لها قوة تدميرية كبيرة.

– الآن أود لفت الانتباه حول النقطة التالية في كتاب سخاروف :"بعد اختبار القنبلة الكبرى، اهتم بواقع أن العسكريين لا يستطيعون استعمالها بدون ناقل فعال ، لأن الطائرة المقنبلة سهل إسقاطها" بعبارة أخرى ، القنبلة لا يمكن نقلها بواسطة الصواريخ التى يمتلكها السوفيات . الفيزيائي إذن "اهتم" بهذه المشكلة ، وهو ما لم يكن بعد من مهمته ، لكن لنواصل ونرى ما يقول : "لقد بذلت ما في وسعي لإنجاح مشروع طوربيد torpille كبير ، يطلق من غواصة ، ومجهز بمحرك ذي طاقة نووية يحول الماء إلى بخار ، وستكون الأهداف المستهدفة هي موانئ العدو البعيدة بمئات عديدة من الآلاف. طمأننا خبراء في البحرية أننا سننتصر في الحرب ، إن نحن دمرنا القواعد البحرية للعدو ، بنية الطوربيدات ستكون بنية أكثر صلابة وضمانا لمقاومة انفجار الألغام، وثقب الشباك المضادة للطوربيدات ، عندما تصل إلى أهدافها ، شحنات المئة ميجاطن سواء تحت الماء أو في الهواء تحدث عدداً كبيراً من الضحايا" ، يمكنكم بالمناسبة أن تدركوا أن سخاروف لم يكن عاملاً سلبيًا مطيعًا لأوامر ، لكنه شخص مكرس بنشاط لمهمته ، يقول كذلك : "استشرت الأميرال فومان Fomin في بداية مشروع Torpedo – الطوبيد الكبير – لقد كان محيراً مشوشًا وضجراً من فكرة إبادة جد فظيعة ومرعبة، ولاحظ أن ضباط الأسطول قد تعودوا على محاربة خصوم مسلحين ، فقط في معركة مفتوحة . لقد أحسست حقا بانحراف في المزاج ، ولم أتكلم في هذا الموضوع مع أي أحد ، ولم أهتم بعدها أبداً بجعل هذه الفكرة مقبولة : إنها لم تكن متطابقة مع المذاهب العسكرية المعتادة ، وكان من الجنون إنفاق مبالغ ضخمة ضرورية لتحقيق هذا المشروع" انظر : منحرف المزاج بعمق" هذا هو ماوجد قوله سخاروف ، بعد أن "بذل مافي وسعه" لتصميم هذه الآلة الرهيبة، التي كانت ستدمر نيويورك في لحظة ، فإنه يستمع ويتناقش ويلتقي بمسئولي البحرية ، يتناقش مع أميرال ، هذا الأخير يجيب ، لا نحارب هكذا ، وهو (سخاروف) يحس بـ "انحراف في المزاج" !

– لقد عرفتم أينشتاين ، هل تعتقدون أن موقفه حول موضوع صنع واستعمال القنبلة كان مختلفاً ؟

– نعم ، قبِل أينشتاين إلعمل حول القنبلة الذرية لأنه كان يؤمن أن الألمان كانوا بصدد صنع آلة ذرية نووية ، وقام بهذا العمل من أجل الدفاع عن أمريكا ، سخاروف كان هو فى اللحظة التى تحدث عنها لا يزال شيوعياً ، وهذا يعنى إن رددنا مصطلحات خروتشوف "إنهاء" الرأسمالية ، لم يكن وسيلة ، أو أداة سلبية بين يدى الزعماء العدوانيين ، بل كان بالأحرى – على العكس – منغمسا كلية فى هذه الفكرة ، لقد كان عمره تسعاً وثلاثين سنة عندما جرِّبت القنبلة ، وأربعين عندما ذهب للقاء الأميرال .

– توجهون لسخاروف تهما مرعبة ، لماذا تراجعتم عن حكمكم الذى أصدرتموه منذ حوالى عشر سنوات فيما يفيد فتح ملف قضية سخاروف مرة ثانية ؟

– لأن هذا يبرهن أنه حتى بالنسبة لرجل مثل سخاروف الذى يتحلى بذكاء كبير، والذى كان يمكن أن يرى قبل أن النظام السياسى السوفياتى جعل من هذا البلد مكاناً رهيباً – وهو ما أدركه بضع سنوات فيما بعد – إنه قد كان أعمى كلية ، فى كتابه لم يقل أبداً "كنت عاملاً أنفذ أوامر" كان يستعمل ، لتردد عبارة خروتشوف ، نفس كلمات مجرمى الحرب الألمان ، وقال له يوما "سأقوم بواجبى" لقد كان هذا بمناسبة جدال حول التجارب النووية ، كان يعرف سخاروف أن كل انفجار تجريبى من هذه القنبلة الخارقة للعادة يعنى مرضا بالسرطان بواسطة الإشعاع لآلاف الأشخاص ، ويقول أنه حاول إقناع الزعيم السوفياتى بأنه لا يجب القيام بها ، وهو ما أجاب عنه خروتشوف بأنه "مسألة سياسية" وليست مسألة "علمية" ، وغضب جداً منه ، لأنه يشتغل بالسياسة "سأقوم بواجبى" ردّ عليه سخاروف ، وهناك الكثير مما يقال حول مسئوليات سخاروف ، يجب العمل طويلا حول مذكراته .

– لكن سخاروف يقدم أيضا وجهًا آخر ، لقد غيّر فكره وبرهن على شجاعة كبيرة وتحدى النظام ، وأصبح واحدا من أنصار المنعطف الديمقراطى ؟

– اتخذ سخاروف المبادرة ، دون أن يطلب منه أحــد ذلك لبرمجة نمط جـديد من آلات الطوربيد بغية تدمير أمريكا، وواضح أنه كانت تتملكه فكرة إنهاء الرأسمالية ، لقد وقع فى ما أسميته فخ الفأر ، فى الثقب الأسود الفكرى لأيديولوجيا تزعم معرفة

مسار التاريخ والقوانين التي تحدد تطوره الضروري والمحتوم ، ولا نستطيع أن نقول أن رجلا بلغ الأربعين لازال صغيراً لا يستطيع الحكم ، وصحيح كلية أنه فيما بعد غيّر فكرته ، لكن إذا قاتلكم رجل في سن الأربعين ، وتمكن بعد بضع سنوات أن يتأسف على ذلك ، وإنه كان عليه ألا يفعله ، هل يمنعه هذا من أن يكون قاتلا ؟

أحتفظ برأى رفيع للقسم الأخير من حياة سخاروف ، لكن مع انزعاجي الكبير يجب علىّ تصحيح حكمى العام حوله ، بالنسبة لى كان أولا مجرم حرب ، وهذا لا يمكن أن يعذر فيه ، لا لشيء إلا لقاء ما قام به لاحقًا .

– لا نستطيع مع ذلك إلا أن نأخذ بعين الاعتبار واقع أن سخاروف قد شبّ بالاتحاد السوفياتى ، وأنه كان طفل عصره وبلاده ؟!

– صحيح أنه كان فى موقف أصعب من موقفى ، وأنه كان يستطيع بسهولة أقل من السهولة التى كانت لى تعيين "الفخ" . أنا كنت أعيش فى بلاد حرة ، حرة نسبيًا عندما خرجت من هذا الفخ، فى سن السابعة عشرة، كان هو يعيش بالاتحاد السوفياتى وقام بهذا التعيين متأخراً جداً . وهذا لا يدل – وبطريقة قوية جدا – إلا على السلطة التى استطاعت أن تمارسها أيديولوجية على أشخاص ذوى ذكاء وموهبة وشجاعة خارقة للعادة ، والشجاعة كانت لسخاروف الفرصة للبرهنة على أنه كان يمتلكها .

– لكى نعود إلى أطروحتكم المتعلقة بأزمة الصواريخ الكوبية ، ما الذى يثبت أن خروتشوف كان سيستعمل القنابل هو الأول لو نجح فى إرسالها سراً ؟ وأن هدفه لم يكن بالأحرى إحداث مفاوضات مع الأمريكان على قدم المساواة (صواريخ كوبا ضد صواريخ تركيا) ؟

– نقل شيء مثل ١١٤٠٠٠ قنبلة من قنابل هيروشيما إلى كوبا بغية التوصل إلى اتفاق مع الولايات المتحدة هذا لا يستقيم ، لو كانت القنابل جاهزة للإطلاق ، لاستعملها خروتشوف ، ولرد الأمريكان بأقصى سرعة ممكنة . الزعيم السوفياتى ما يمكنه أن يقول لكينيدى : "انظروا ، لدىّ ما أمحوكم به من الخريطة ، إذن فماذا تعطوننى "لأن الولايات المتحدة لم يكن فى استطاعتها أن تفعل غير ذلك ، تطلق

بدورها قنابلها ، أليس هذا بديهيًا ؟ في حالة مثل هذه لم يكن لأمريكا أي خيار ، وخروتشوف لا يستطيع ألاّ يعرف أنه لم يترك لخصومه إلا اللجوء إلى الأسلحة النووية ، ولا يمكن رؤية الموقف بطريقة أخرى : أعلم أن لديكم مليونا في الجيب، وأنا لديّ مسدسًا ، لكن أيضا أنتم لديكم مسدسٌ ، إذن إذا عرفت أنا أنكم أيضا مسلحون، وإذا عرف كلانا أن الآخر مسلحٌ ، فلن أستطيع أن أقول : "هو ذا سيدى ، جئت لأتناقش معكم" إنه الذى سيطلق الرصاص الأول .

– لقد أدخلتم مشكلة سخاروف وأزمة ١٩٦٢ لتحدثّنا عن الانحطاط السوفياتى ، والآن يجب تفسير – بوضوح أكثر – أطروحتكم التى تتحدد مقدماتها الأولى فى هذه الحقبة ، إن فشل هذه المحاولة العسكرية لخروتشوف ، كانت كما يقولون بداية النهاية ، تعتقدون إذن أن هذه المحاولة كانت آخر إمكانية للاتحاد السوفياتى لهزيمة الولايات المتحدة ؟

– الأولى والأخيرة : الأولى لأنه بدون قنبلة سخاروف فإن السوفيات لم يكن لهم أى حظ لتدمير أمريكا بدون حرب ، أى بواسطة اغتيال ، والأخيرة لأنه بداية من هذه اللحظة عرف السوفيات دائما أن الولايات المتحدة لن تتردد لحظة إن جدّت ظروف مطابقة لها ، الأولى والأخيرة ، وإنه بهذا الفشل مهّد للانحطاط .

– إذن تعتقدون أنها أسباب من طبيعة عسكرية هى التى قررت انحطاط الاتحاد السوفياتى والشيوعية ؟

– نعم ، هذا هو بالذات ، الفكرة الوحيدة الأساسية ، الفكرة الأخيرة التى بقيت من المذهب الماركسى ، كانت هذه : الرأسمالية يجب أن تدمر، والطبقة الحاكمة الديكتاتورية الشيوعية كانت تقدر أنها أداة التاريخ التى بواسطتها ستدمر الرأسمالية وينُقذ العالم ، ومن أجل هذا واصل السوفيات صنع القنابل ، ولا شىء غيرها ، مع علمهم أنهم لا يستطيعون استعمالها، وهو ماكان على المستوى الفكرى شيئا غير ذى معنى على الإطلاق . وبداية من هنا فإن الآمال التى كان يستطيع السوفيات تغذيتها لم يفعل إلا على تحللها ، ورغم هــذا صنع هذا البلد مايقارب ١٤٠٠ قنبلة ذرية ،

الواحدة منها ذات قوة ثلاثة آلاف قنبلة هيروشيما ، وهو ما يعطى على الأقل مجموعًا لثلاثة ملايين ومائتى ألف قنبلة من قنابل هيروشيما ، وكل واحدة منها يمكن أن توجد فى السوق السوداء، وقد وجدت بالفعل، دون حساب أن الصينيين أيضا يستطيعون منافستهم فى هذه السوق . هاهو الموقف المرعب الراهن ، إنه أول تحد يجب رفعه .

– سنعود إلى هذه النقطة الأساسية فى سياسة اليوم ، لكن الآن أود أن تكملوا تحليلكم للانحطاط السوفياتى : لماذا بعد هذه الحقبة سنة ١٩٦٢ – التى عاشت ما تعتبرونه كآخر إمكانية "إنهاء" عسكرى للولايات المتحدة الأمريكية ، الكثيرين مستعدون لاعتبارها على الأقل آخر إمكانية منحت للتوصل إلى توازن عسكرى ، بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتى – النظام الشيوعى هل استمر طويلا ؟ ليس إلا مع جورباتشوف فقط حدث المنعطف النهائى ؟

– لأنه لانجد إلا مع جورباتشوف على رأس الاتحاد السوفياتى رجلا يدرك ضرورة تغيير الفرضية القاعدية لكل سياسة روسية ، التى تقول أن هذا الشعب تتمثل مهمته فى تدمير الرأسمالية (يعنى أمريكا) وجورباتشوف هو كذلك الزعيم الوحيد الذى زار الولايات المتحدة مرات عديدة ، وهذا هو المهم ، لأن هذا سمح له بمعرفة الواقع الأمريكى ، وترجم إرادته للبرهنة على تفهم تجاه شعب حر ، شعب غير عدوانى نحو الاتحاد السوفياتى ، والذى يأمل أن يكون للاتحاد السوفياتى نفس الموقف . إنه جورباتشوف الذى أعلن هذه الجملة المهمة : "أريد أن أجعل من شعب الاتحاد السوفياتى شعبًا سويًا" هنا واحدة من كلماته العميقة – والحق يقال – التى تثبت أنه رأى جيّدًا أن شعبًا سيكون فيه أناس مثل سخاروف يستطيعون أيضا أن يصبحوا عدوانيين بدرجة لا تصدق ، ليس "شعبًا سويًا" هذا هو امتياز جورباتشوف أنه فهم أن شعبه لم يكن "سويًا" فى حين أن الشعب الأمريكى كان "سويًا" ، أريد أن أقول من وراء هذا ، أنهما كانت لهما مواقف مختلفة كلية ، وأن الأمريكان لم يكن فى رءوسهم اللعب المرعب، الذى تحدثنا عنه. كل الذين يعرفون أمريكا يعرفون ماذا أريد أن أقول .

– تعترفون بهذا الامتياز لجورباتشوف ، لكن نعلم جيداً أن ليس لكم رأياً رفيعًا حوله ؟ لقد قرأت محاورتكم مع "ريكاردو شيابيرج" والتي أكدتم فيها أن كتابه "بيريسترويكا" "هو فارغ كلية" ، وأنه ليس إلا "ريحا" ، وزيادة على هذا تقولون أن يلتسين ليس إلا "رجلا مريضا Obsédé بثأره" .

– نعم أدعم هذه الأحكام ، لقد أيّدت دائمًا أن جورباتشوف كان من المحتمل أن يكون رجلاً صاحب نوايا طيّبة، لكنه بدون أفكار ولا مخططات دقيقة كما يستنتج من كتابه ، ومع ذلك له امتياز كونه فهم الفرق الموجود بين الموقف السوفياتي والموقف الأمريكي، وأيضا أنه بحاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة . أما فيما يخص يلتسين ، يبدو أنه مهيمَن عليه ليس فقط الاهتمام الذي يعطيه لنفسه ذاتها، لكن فضلاً عن هذا رغبة الثأر من جورباتشوف .

– دائمًا كان هذا مع هذين الرجلين ، وصلنا إلى المنعطف الكبير ، وإلى حل النظام السوفياتي ، كيف كان حسب رأيكم العمل الحاسم الذي أدى إلى سقوطه ؟

– إن الواقعة الحاسمة التي أدت إلى انهيار الأنظمة الشيوعية ، كانت هروب ألمان ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية عبر النمسا . أعتقد أنه حتى ولو أن الاتحاد السوفياتي لم يختزل ، لأقل هكذا ، إلا إلى نوع من الفضاء الفكري الفارغ ، كان يستطيع أن يستمر إلى الأبد ، أو على الأقل لمدة أطول ، لكن ما عجّل الحركة كان قرار المجريين فتح حدودهم لألمان ألمانيا الديموقراطية سابقًا للسماح لهم مع سياراتهم الالتحاق بألمانيا الغربية عبر النمسا ، وهذا سبب أزمة النظام الألماني الشرقي وكل ماتلاه وتبعه . عند هذا المستوى لم يكن يستطيع جورباتشوف تجنب الكارثة ، وكان يمكن إرسال جيوش إلى المجر، لكنه لم يكن مستعدا لمثل هذه المبادرة ، وزيادة على هذا ماكانت الولايات المتحدة لتسمح بذلك. هو ذا ، لماذا نستطيع القول أن الواقعة الحاسمة جاءت من المجر؟! وهذا ما أعتقده على كل حال، ونعرف جميعًا ماحدث سنة ١٩٨٩ ، وماحدث منذ الأزمة الألمانية .

٤ – الأسئلة السياسية على جدول الأعمال ، دولة القانون والأطفال[1] :

– لقد وصلنا إلى نهاية النظام السوفيتي، أحب الآن أن نناقش نتائج هذه الأحداث ، بدايةً فى البلدان المقادة سابقًا ثم من بعد ذلك فى مجموع الساحة السياسية العالمية. من وجهة النظرية السياسية، ما النتائج التى يمكن استخلاصها؟

– فى بداية هذا المحضر أريد أن أؤكد أنه لايمكن لنا أن نبنى من الأعلى مجتمع الاقتصاد الحر، مايمكن أن نفعله من الأعلى أو من فوق ، والذى يجب علينا أن نفعله دائماً، وما يتحتم على الحكومات أن تفعله هو محاولة إقامة دولة القانون ، والروس فى حاجة إلى دولة القانون ، ولكن لا أحد يقول ذلك الآن، ولم أسمع أحداً يتكلم عن ذلك . ومن أجل الوضوح أريد أن أشرح الفارق الكبير – حسب رأيى – بين مافعله جورباتشوف وما كان يجب عليه أن يفعله، وبالفعل فإن ما فعل شىء مضحك وسخيف، وذلك عندما أنشأ بورصة القيم فى موسكو "Bourse des valeurs" والتى تم تدشينها تحت رعاية الكنيسة الأرثوذكسية كما رأينا ذلك فى الصور الفوتوغرافية .

– لماذا تعتبر بورصة القيم فى موسكو مسخرة ومهزلة ؟

– لأنه لا وجود لا للقيم ولا للنقود التى تشترى ، لا قيم – بمعنى الأسهم – ولا للنقود ، أريد أن أقول نقوداً حقيقية وليس الروبل ، ومع ذلك فلقد أنشأ بورصة للقيم . أما الشىء الذى لم يكن موجوداً وما يحتاجه الاتحاد السوفياتى فى الدرجة الأولى فهم القضاة ، ليس القضاة الذين يكوّنون نتيجة لانتقاء الحزب الشيوعى ، وإنما قضاة مكرسون لدولة القانون ، والذين يشعرون أنهم مسئولون عن عملية متجهة نحو تأسيس دولة القانون فى أوطانهم أو بلدانهم. إلى حد الآن قضاة الاتحاد السوفياتى كانوا وبشكل أساسى وسائل للديكتاتورية ، فليس هناك قانون يحدد الإجراءات العادية التى تحفظ حقوق الجميع .. إلخ ، من هنا كان يجب البدء وليس من بورصة القيم .

(١) ترجم هذا النص الدكتور الزواوى بغورة .

وحتى نابليون"Napoléon" كان يعرف أنه يجب إنشاء قانون أو إقامة تشريعات إذا أردنا أن نقيم مجتمع السوق الحرة ، إلا أنه لا أحد قد قال هذا بشكل واضح ، حتى هنا فى بريطانيا حيث توجد تقاليد عريقة لدولة القانون ، فحتى هنا كذلك يجب أن تكون هذه الضرورة واضحة بما أن الفساد والرشوة تتداخل بشكل واسع مع السوق الحرة . في إنجلترا تهتم الشرطة دائمًا بما يجرى فى عالم البورصة، ثم إن النضال من أجل دولة القانون لم ينته فى أى مكان حتى هنا عندنا ، فى المجتمعات الغربية . وفى روسيا كان على الحكومة أن تقوم بهذه الخطوة الأولى والوحيدة ، ولكن بدلاً من هذا فإنهم حاولوا وبكل الوسائل إدخال نظام جديد فى الاقتصاد ، ولكننا لا نقيم نظامًا اقتصادياً من الأعلى ، لأنه لا يمكن أن يكون لنا اقتصاد حر إذا لم يكن لدينا أناس لهم أفكار فى الاقتصاد ، أفكار فى هذا القطاع أو ذاك ، أناس يفرضون أنفسهم من خلال عرضهم لمنتج لا يقترحه أحد ، خبز جيد تفاح جميل فلافل كبيرة ... إلخ ، ما يريده أو مايرغب فيه الناس وما يحتاجونه ، يجب أن تكون لهم المقدرة على تقديمه ولكي يكون هذا ممكنا يجب قبل كل شيء أن تكون هنالك آلية تحمى الذى يشترى والذى يبيع – إنها آلية السوق .

– تعرض هنا إلى نقطة مركزية فى تفكيرنا اليوم والتى يكتنفها بشكل عام نوع من اللبس : يتعلق الأمر بالعلاقة بين حرية السوق وتدخل الدولة ، بين المبادرة الحرة فى الاقتصاد وبين المهام الموكلة للهيئات السياسية والعامة والتى لايجب أن تتخلى عنها ، فأزمة الأنظمة الشيوعية ذات الاقتصاد المخطط قد أدى إلى نوع من الرأسمالية المتوحشة – محرومة أو مجردة من الفعل الناظم للسلطة السياسية – رأسمالية فى الواقع لا وجود لها ، لأنها لم توجد حتى فى العالم الغربى. الحقيقة أنتم كذلك فى "المجتمع المفتوح وأعداؤه" ، بمعنى فى العمل الذى تنتقدون فيه التسيير الاشتراكى باعتباره تسيير شمولى ، والذى لم تكونوا فيه سنجًا لدرجة أن تعتقدوا أن الليبرالية تعنى أنها مساوية أو معادلة لغياب كل أشكال تدخل الدولة، لقد ساندتم فى هذا الكتاب فكرة تفضيلكم لتدخل تدرجى وديموقراطى مثل ماهو الحال فى الاتجاه الاجتماعى – الديموقراطى السكوندنافى . لنوضح جليا هذه النقطة ، حتى نرى إذا كنا نستطيع تقديم اقتراحات عملية للسياسة الحالية والمستقبلية ، فى الشرق كما فى الغرب .

لنبدأ بهذا : ماهي بحسابكم ، ذلك التوازن الصعب بين السوق والتدخل الاجتماعي ؟

– لنبدأ بالقول أنه لا وجود لاقتصاد حر من دون تدخل للدولة ، إن هذا الإقرار يبعد جملة من الأفكار المعينة والمتداولة : لا يمكن أن يكون هناك اقتصاد حر ، لنكن واضحين ، من دون تدخل الدولة .

– لماذا ؟

– لدينا تقارير تاريخية لما جرى في الأسواق الحرة المتوسطية méditterraniene قديمًا كانت سفن فنيقيا phenicie ترسو على شواطئ أثينا Athénes ، حيث يتم تبادل السلع، ولكن في اليوم الذي رجع فيه الفينيقيون حاملين الأطفال اليونانيين معهم دق ناقوس التبادل ، وبطبيعة الحال لم يجرؤ الفينيقيون بعد هذا على العودة إلى أثينا . أتفهم ماذا أريد أن أقول ؟ الفنيقيون سرقوا ، وبالنظر إلى كونهم سرقوا أشخاصًا فإن إقامة سوق أصبح أمرًا مستحيلاً. فإذا لم يكن هنالك نظام تشريعي قائم سلفًا لايمكن أن يكون هنالك سوق حرة ، يجب أن يكون هنالك فرق بين الشراء والبيع من جهة ، والسرقة من جهة أخرى ، والحال فإن نظامًا كهذا لا يمكن أن يقوم إلا بواسطة الدولة، وحتى في المجتمعات التي لا تحصل فيها السرقة إلا متاصفة بمعنى من خلال الرشوة فإن هذه الأعمال كذلك لا تتلاءم مع سوق حرة ، على سبيل المثال يمكن أن نشير إلى الحالة التي حدثت في إنجلترا مع الانهيار المالي لـ "ماكسويل Maxwell" ، هذه كذلك ، كانت ولو نسبيًا مسألة رشوة وسرقة أموال ، بمعنى أن ماكسول قام بالاقتراض من البنوك لمليارات لم يستطع تسديدها . كل محاولة لإقامة مانسميه "الرأسمالية capitalisme" لا تؤدي في غياب نظام من القوانين إلا إلى الرشوة والفساد والسرقة ، الفارق بين دولة محدودة التدخل ودولة واسعة التدخل لايعتد به مقارنة بالمجتمع الذي له نظام تشريعي ومجتمع لايملك مثل هذا النظام .

– إنك تقوم بعملية قلب لبعض الأفكار المهيمنة ليس فقط في الشرق ولكن في جهات أخرى ، والتي من خلالها يمكن إقصاء مختلف الوظائف السياسية أو الانتهاء منها، ما نتائجها على سبيل المثال على تطور المجتمع الروسي ؟

– أعتقد أن الأمر يتطلب سنوات حتى يتم تأسيس نظام تشريعي في الاتحاد السوفياتي سابقًا، سنوات حتى يتمكن من إقامة شيء يشبه السوق الحرة ، ومن الآن

إلى ذلك الوقت سنعرف وسنشهد كل أنواع الانقلابات والتغيرات . الناس تذهب إلى روسيا وتعود جيوبها ممتلئة ، تاركين خلفهم ديون وفوضى مالية ، هذا لاشك فيه ، ففي ظل غياب نظام من القوانين ، لايمكن أن نقيم إلا الفوضى أو "العماء chaos" ، هذه هي بالأساس أطروحتي . وأعتقد أننا نهمل كل هذا لأننا مازلنا تحت تأثير الماركسية، بمعنى الاستمرار في تفكير الاقتصاد والتقليل من أهمية النظام التشريعي ، لأنه بحسب ماركس : القوانين هي التنكر من السرقة ، لهذا السبب أرى أننا نرتكب خطأً خطيراً .

– إذن أنت تعتقد أن تدخل الدولة محدد في إقامة نظام تشريعي ودولة القانون ، إنه شرط مسبق أو مقدم لسوق حرة ، لننظر الآن كيف أنّ تدخل "الفعل العام action publique" يمكن أن يساعد في تحديد دور اليمين واليسار، ولكن هذين اللفظين «يمين» و «يسار» هل مازال لهما معنى عندكم ؟ هل يمثلان تقسيمًا دائمًا للساحة السياسية ومن المفيد الاحتفاظ بهما ؟

– أملي الكبير أنه مع زوال الماركسية ، نتمكن من إقصاء واستبعاد الضغط الذي تمارسه الأيديولوجية في قلب السياسة ، الماركسية تثير حتمًا وجود أيديولوجية مناهضة للماركسية ، لهذا كانت هنالك مواجهة بين أيديولوجيتين كانتا – بمعنى ما – مجنونتين كلية ، والحال أنه خلف هذه المواجهة ليس هنالك أية حقيقة ، وإنما فقط مشاكل وهمية أو مسائل خاطئة . ما أتمناه ، منذ أن كتبت "المجتمع المفتوح وأعداؤه" هو أن ننجح في إنشاء قائمة للأولويات التي نطبقها في المجتمع .

– إذن أخبرنا بقائمتك للأولويات ؟

– النقطة الأولى هي السلم ، والمسألة الأولى متعلقة بما سبق أن تحدثنا حوله ذلك المتعلق بقنابل سخاروف ، إن الرءوس النووية المنتجة في الاتحاد السوفياتي والصين توجد مع الأسف في السوق السوداء، الحفاظ على السلم هذا يعني بأن كل المجتمعات المتحضرة والتي مازالت متحضرة عليها أن تعمل من أجل إبعادها أو استبعادها من السوق السوداء، ولعله يجب شراؤها، ولم لا ؟ قد يكون ذلك أفضل طريقة لامتلاكها بكل أمان. إذا أردنا ضمانًا حقيقيًا للسلم يجب على هذه الدول أن تتعاون حتى نصل – إن أمكن – إلى وضعية حيث تكون فيه القنابل في أيدي الشعوب المتحضرة ،

من أجل أن تحطمها ، وأن لاتحتفظ إلا بكمية قليلة منها ، وذلك لأسباب أمنية . هنا تكمن النقطة الأولى من القائمة ، والتى تتطلب تعاون جميع الأطراف ، ولا يجب اعتبارها من طبيعة أيديولوجية .

ثم بعد ذلك يجب وضع حد للانفجار السكانى أو الديموجرافى ، هذه النقطة كذلك ، الثانية فى القائمة ، رئيسية بالنسبة للعالم كله، فكل هذه الأحاديث حول المحيط والبيئة لا تغنى شيئًا إذا لم نتصد للمشكل الحقيقى وهو النمو الرهيب للسكان ، إنه هو الذى يتسبب فى هدم وتخريب المحيط ، وهنا أيضا علينا أن نتعاون بعيداً عن الانتماءات الأيديولوجية .

النقطة الثالثة وهى التربية ، وفى هذا المجال أعتقد أنه يجب وضع برنامج يتعاون فيه الجميع ، لقد قدمت حول هذا الموضوع منذ سنوات مداخلة فى غرفة اللوردات بطلب من الحزب الديموقراطى - الاجتماعى . لقد كانت أطروحتى ومازالت إلى حد الآن ، وهى : نحن نربى أطفالنا على العنف بالتليفزيون ووسائل الاتصال الأخرى المختلفة ، فى هذه المناسبة قلت - ومازلت أفكرها وأؤمن بها - إننا فى حاجة - مع الأسف - للرقابة .

- يأتى هذا التأكيد تنقيقًا من ليبرالى مثلكم، فى الواقع إن تردى وسائل الإعلام يعاقب غالبًا ، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن على العكس من ذلك فإنه فى ألمانيا مسموح به من قبل الليبراليين، التنديد بأضرار أفلام الجنس والعنف أحد فرسان المعركة لمعارضى الليبرالية.

- أنا آسف لأنى قلت ذلك ، ولأنى تحديداً ليبرالى ولأنى لست مع الرقابة ، ولكن صحيح أيضا أنه لايمكن أن تكون هنالك حرية من دون أن تكون هنالك مسئولية، فلو كان كل واحد يعيش بصفة مسئولة كاملة - كما كان يجب أن يعيش - ويفكر فى نتائج أفعاله على الأطفال لن نكون فى حاجة إلى الرقابة ، إلا أنه مع الأسف الأمور ليست كذلك والوضعية تزداد سوءاً بعد سوء : الناس يرغبون أكثر فأكثر فى العنف ويطلبون ذلك من التليفزيون ليعرض أكثر فأكثر ، إننا لا نقبل هذا التصعيد ،

لقد قرأت في الجرائد قصة ذلك الشاب الإيطالي، الذى قتل أباه من أجل أن يسرق زميلين له[٢] ، بالإضافة إلى الحدث فإن ما حزنني هو حجم المساندة التى تلقاها بعد أن ارتكب هذا الفعل ، لذلك أتساءل : أليست هنا حجة بأنى على حق عندما حذرت من خطر توجيه تربية الشباب نحو العنف ؟ رسائل دفاع القاتل تأتي بكل بداهة من أناس يقضون نهارهم أمام الشاشة ، شباب يشاهد التلفزة لساعات وساعات. لقد كنت مربياً، وأعرف أن الأطفال لايحبون العنف، وعندما يحدث أن نشاهد أفلاماً في السينما مع الأطفال ، أفلام مغامرات حيث يموت أحد الممثلين ، نعرف تماماً أن الصغار يغمّضون عيونهم عند أول خطر يظهر أو يبدو أو يلوح، إلى اليوم الذى ينكسر فيه شيء ما . وكما الأحصنة التى نحضرها لمواجهة العنف ، فإن الأطفال كذلك ينتهون إلى المطالبة بالمزيد من العنف ، لأن العنف يتفوق على عواطفهم ، على الخوف والنفور.

بهذه العملية نحن نخلق أو نساهم فى خلق وضعية مستحيلة ، والحال أن دولة القانون تقتضى أولاً وقبل كل شيء إقصاء العنف ، وأقول أكثر ، إن هذا هو التعريف الصحيح لدولة القانون ، إننى لا أستطيع حسب القانون أن أضرب أحداً أو شخصاً آخر، إن حرية و حقوق كفّى تنتهى عندما تبدأ حرية الآخرين فى الدفاع عن أنوفهم ، هذه هى الفكرة الأساسية لدولة القانون ، ولكن فى الوقت الذى نقبل فيه أن نختزلها إلى الصفر أو إلى اللاشيء أو إلى العدم فإن النفور العام الذى يوحى به العنف من أننا نخرب أو نعرقل دولة القانون والاتفاق العام يقل ، وبذلك نحطم ونخرب حضارتنا .

– النقطة الثالثة فى قائمتك ، هى إذن تربية الأطفال .

– واجبنا يفرض علينا أن نربيهم بشكل صحيح، تماماً كما يحتم علينا أن نعلمهم القراءة والكتابة ، بتعبير آخر علينا أن نتجنب حدوث انتهاء المقاومات الطبيعية للعنف عند غالبية الناس .

(٢) يشير بوبر إلى "بيترو مازو ، الشاب الفيروني الإيطالى ، الذى كان يبلغ من العمر ١٩ سنة ، والذى قتل أباه وأمه بمساعدة صديقيه ، من أجل الحصول على أموال . هذه القضية نشرت بشكل واسع ومكثف فى الصحف البريطانية .

– إنه نوع من التدخل الأخلاقي يثير الفضول جداً، لأنه صادر من قبل ليبرالي مثلكم ظهر في السنوات الأخيرة ، على سبيل المثال، في مقابل المدافعين عن المحيط والبيئة ، بأنه مع فكرة حل المشاكل بواسطة سوق حرة كلية ، إلا أن انحطاط أو تدهور وسائل الإعلام هو أثر من آثار السوق .

– حرية السوق أساسية إلا أنها ليست مطلقة ، إنها صحيحة بالنسبة للسوق، وكذلك لبقية الأشياء ، لكن الحرية المطلقة عبث ، لنأخذ عبارة كانط : « ما نحن في حاجة إليه هو مجتمع حيث حرية الفرد متعادلة مع حرية الآخرين، حريتي ليست متعادلة معك إلا عندما نرفض معا استعمال العنف ، أنا لا أضربك وأنت لا تضربني». ترى إذن أن حريتنا محدودة ، وإذا لم يكن الأمر كذلك أو إذا لم تكن الحالة كذلك ، إذا كان أحدنا يريد أن يضرب الآخر ، في هذا الحالة يتدخل القانون ، القانون يحمينا من العنف ومن الجريمة ، هذه هي القاعدة وهذا هو المعيار، وهذه هي دولة القانون ، فلو لم يكن هنالك أي شخص يرغب في القتل لما احتجنا إلى القانون، ولكن في الوقت الذي يكون فيه فرد يرغب في الضرب فإننا في حاجة إلى هذا العنصر للتدخل والتوسط ، ولهذا السبب قلت إنه إذا ما ربّينا أطفالنا بشكل أفضل ، ولجأنا إلى الرقابة كإجراء من بين الإجراءات الأخرى التي نلجأ إليها، فإننا نحصل على حرية أكثر ، ولكن إذا ما نسيناها أو تخلينا عنها أو أهملناها فإننا سنحصل على حرية أقل ، دولة القانون تتطلب "اللاعنف أو عدم العنف LA Non-violance" وهو النواة الأساسية ، وكلما لم نهمل أو نقلل من واجبنا في التربية على عدم العنف فإننا سنوسع من دولة القانون ، بمعنى تطبيق القوانين في ميدان النشر والتلفزة والاتصال أو الإعلام الجماهيري . إنه مبدأ بسيط جداً ، والفكرة هي نفسها أو هي ذاتها : توسيع حرية كل واحد إلى أقصى حد ممكن في إطار الحدود التي تفرضها حرية الآخرين ، ولكن إذا استمررنا كما نحن الآن سنجد أنفسنا بسرعة ، في مجتمع يصبح فيه الاغتيال أو القتل عملة متداولة .

– إنك تتحدث عن مبدأ سياسي ، وهو كذلك مبدأ أخلاقي .

– علينا واجب أخلاقي إضافي نحو أطفالنا : علينا أن نعطيهم أفضل ما نملك، وأن نؤثر عليهم أحسن تأثير ممكن من أجل أن نسعدهم ، إن هذا ليس بجديد ،

إذا كانت القواعد تسمح لي باستعمال كفي في حدود ما يسمح لك بحماية أنفك ، وهو أيضا المبدأ الأساسي لليبرالية ، أنا لا أبتعد عن الليبرالية عندما أشترط وألح على أن دولة القانون يجب أن تتسع للدفاع عن الأطفال ، الذين هم أعز وأثمن وأغلى ما نملك .

– نعرف الآن الأولويات التي تضعها على جدول أعمال السياسة ، يتعلق الأمر بموضوعات : السلم ، والتحكم في النمو الديموجرافي والتربية على عدم العنف – والذي يتطلب تعاون الجميع من دون تمييز أو تفريق ، بالنسبة لك هذه الموضوعات ليست يمينية ولا يسارية .

– ليست يمينية ولا يسارية، هذه الأولويات تبين لنا ما يمكن أن يحل محل التمييز يمين/يسار، وهو ما يعني أنه علينا أن نفكر فيما يجب أن نفعله حتى نحقق هذه الغايات ، علينا أن نضع جانبا تطلعاتنا الفردية وأن نركز على ما يجب أن يكون تطلعاتنا جميعا، وليس على جزء خاص من المجتمع ، ولكن تحديداً علينا أن نطالب إن كان هنالك من أسميهم بالمعوزين ، هم هؤلاء الأشخاص الذين يعيشون في ظروف صعبة والذين هم في حاجة إلى مساعدة، إنني أفكر في المعوقين والمرضى العقليين على سبيل المثال ، إن هذه العناصر كلها يجب أن تشكل قائمة الأولويات ، طبعًا يجب أن تكون مفتوحة للحوار والتشاور . وفي النهاية يجب استبدال النظام المرعب الخاص بالأحزاب ، والذي يجعل من النواب الذين يمثلوننا حاليا في البرلمان تابعين للحزب ، ولا يوظفون جهودهم إلا في المرتبة الثانية عندما يتعلق الأمر بالشعب ، في اعتقادي هذا النظام يجب إلغاؤه ، وعلينا العودة إلى وضعية حيث النواب أو الممثلين يستطيعون القول في البرلمان : نحن نمثلكم ولا ننتمي إلى أي حزب ، يجب إقامة مثل هذا النمط من التمثيل ، الذي يوجد هنا وفي بلدان أخرى . مع سقوط الماركسية فإن لنا فرصة للمضي في هذا التوجه ، أما بالنسبة للأولويات التي أشرت إليها ، فإننا نأمل أن ننتظر أو نجد حزبًا ، مهما كان ، يقبلها ويعلن عن قبولها كما هي ، وأن يدفع بالأحزاب الأخرى أن تتعاون لخلق وضعية جديدة .

– نعرف تصوركم للتدخل الديموقراطي وكذلك قائمة أولوياتكم، على هذا الأساس أو القاعدة ماهو النموذج السياسي الذي تراه أو تعتقد أنه مناسب وملائم لمرحلتنا :

الاجتماعي – الديموقراطي ، أم الليبرالية ، أم الاشتراكية الغربية أم أشكال سياسية أخرى تحددها ؟

– النموذج السياسي الجيد هو بالأساس النموذج الديموقـراطي ، ديموقـراطية لا تهدف إلى إقامة هيمنة ثقافية ، بتعبير آخر علينا أن نعمل من أجل السلم ومن أجل الأهداف الأخرى التي حدثتك عنها ، ولكن الخاصية أو الميزة الأساسية للديموقراطية يجب أن تكون هي الحرية الثقافية للناس ، وأن لا يسيروا من الأعلى وهو أمر غير بسيط، لأنه من أجل خلق مثل هذه الوضعية يجب – من بين ما يجب – تثقيف كبير للناس ، يجب أن نعي أن التلفزة قتلت عدداً من الآمال في مجال الثقافة . منذ شبابي مرت الكثير من الأمور والأشياء المرعبة، كانت أسوأ من الآن، الكثير من الناس لم يكونوا أحراراً، والكثير يموتون بالمجاعة ، والنســاء خاصة اللواتي من الطبقـات الدونية لم يكن لهن أي خيار، أو أمل ... لاشيء . الشابات أو الفتيات الشابات اللواتي يعملن بوصفهن خادمات عند الخواص كان لهن توقيت مرعب ولم يكن لهن إلا يوم راحة واحد كل أسبوعين ، اثنتي عشرة ساعة من الحرية يقضينها خارج منزل سيدهن ، مرة كل خمسة عشر يوماً ، هذا أسوأ من أن يكن عبيداً ! هكذا كان الحال في أمريكا قبل ١٩١٤ وفي أوروبا حتى سنة ١٩٢٠ ، نستطيع القول إذن اليوم بأننا نعيش في عالم أفضل ، إلا أن عالمنا مهدد بنمط أو بشكل من التربية الجنوني ، أعتقد أنه في هذه النقطة ، علينا أن نتحرك ، وأنه في الوقت الذي نستطيع فيه وضع نظام تربوي مسئول حقيقة نستطيع أن نعود فيه إلى اليوم الذي كان فيه العنف استثناء ، إلا أنه في الوقت الحاضر وبحسب الوتيرة التي تحدث بها الأشياء فإن العنف أصبح أكثر فأكثر جزءاً من مشهدنا اليومي وأصبح الاهتمام الوحيد لأكثر الناس .

– ولكن كيف ندفع بعملية سياسية تسمح بتحقيق هذه الأهداف التي أعلنتها أو أشرت إليها ؟ أين نجد الطاقات الضرورية لذلك ؟ كيف نحقق أو نصل إلى تحقيق موافقة الناس على هذه الأولويات ؟ فهل نلجأ إلى الاعتراض التقليدي الذي يعارض الليبرالية بـ : إنها ضعيفة جداً حتى نجعلها مقبولة عند القوى المعارضة ، وعند المشاعر والرغبات والمصالح والقناعات المعارضة .

– على الاعتراض التقليدى ، أجيب إجابة الليبرالية التقليدية : علينا أن نعترض على العنف لنعتبر هذا ، على سبيل المثال : منذ ثلاثين سنة كانت كل الأحزاب كانت تطالب بعدم العنف ، وكان لها نفس الطموح أو الأمل فى عالم من غير عنف، إلا أن هذه الفكرة اليوم التى كان الاتفاق عليها أمر بديهى قد تم نسيانها ، والحالة أو المثال الإيطالى الذى ذكرته سابقًا يبين بوضوح وجلاء أن الأطفال والشباب يواجهون خطراً حقيقيًا : وهو التعود على العنف ، إنهم يعجبون ويستحسنون الذين يقتلون والديهم طمعًا وجشعًا، لأنهم لا يحبون أن ينتظروا ، ولأنهم متلهفين، إنه لشىء مهول ومرعب. ونحن خلقنا هذه الوضعية ، وسمحنا بأن يحدث هذا ، لقد رأينا وشاهدنا ما يحدث ، ولكن كنا من الغباوة على الاعترض على ذلك ، مازال هنالك وقت للتدخل إلا أنه محدود، لا يمكن أن نستمرعلى هذه الكيفية أو الحالة .

– رجال الدين والكنائس يقولون : «نحن لدينا جواب نقدمه ، ولكن أنتم اللائكيون العلمانيون والليبراليون أو غيركم ، ليس لديكم ذلك» .

– أنا مع التعاون مع الأديان وقبل كل شىء ، إنهم يعرفون جيداً أنهم لم ينجحوا فى نشر أفكارهم ، وإجمالاً – ماعدا عندما يسلكون مثل العراقيين والإيرانيين والأصوليين الإسلاميين الآخرين، لأننا نرى ظهور أعمال عنيفة فى هذه البلدان – يتعلق الأمر بأناس مستعدين للتعاون مع الآخرين، مع الذين يعلمون أن الإيمان الدينى ينبثق من فكرة اللاعنف ، وإنه لمن المفيد أن يكون هنالك تعاون : بين المسيحيين واليهود ، بشرط أن لايكونوا هم كذلك أصوليين .

– إذن تريد أن تقول أن الرؤية السياسية الليبرالية بالضرورة تسير مع الدين ؟

– لا أطرح الأمور بهذه الصورة، أعتقد أن الليبرالية يمكن أن تستغنى عن الدين، ولكن يجب، بكل بداهة أن تتعاون مع الجميع . بالتأكيد المشكل أنه إلى حد الآن ، وتقريباً جميع الناس كانت متأثرة بشكل عميق بالماركسية ، ومع سقوط الماركسية فإن الأمل فى تجسيد وتحقيق الاشتراكية قد انتهى وضاع ، إلا أنه بقيت فكرة تم تعليمها وتحفيظها وتلقينها منذ زمن طويل فى المدارس ، وهى أن الناس جميعا لا يرغبون ولا يبحثون إلا عن المال ، والذهب ، والمواد الأولية ، وأن الناس جميعا أنانيون ويريدون

أن يصبحوا أغنياء . وبحسب التأويل الماركسي للتاريخ فإن غاية كل فرد هو ربح المال ، والحصول واقتناء مواد جيدة أو أشياء جيدة ، وعلى أسلحة وسلطة . هذه النظرة للتاريخ المجردة من كل أمل ، لا تترك لنا من الإرث إلا أنانية قانطة في تصور الأشياء الإنسانية ، وبفكرة أن الأشياء كانت بهذه الصورة وستبقى كذلك دائماً .

– ولكنه أيضا ليس من السهل مساندة أن خطر العنف يجد أصله فقط فى التصور الماركسى للتاريخ وفى الأزمة التى يمر بها !

– هنالك مجموعة من العوامل ، هذا التأويل الوقح الخاص بالتعاليم الماركسية السابقة، تضاف إلى تظاهرات العنف التى تعيش فى المجتمع أو التى نحضر تظاهراته فى قلب المجتمع ، يمكن لنا أن نتصور بسهولة الأثر الذى يحدثه كل هذا على الشباب. أعتقد أنه فى ألمانيا يمكن أن نميز ثلاث مراحل شكلت قاعدة التصور الحالى للتاريخ ، المرحلة الأولى هى مرحلة الوطنية ، التى أرادت أن تجعل من ألمانيا هى المتفوقة على كل أمم العالم وأن تحتل المكانة الأعلى التى تعود إليها بحكم القانون ، نجد هذه الفكرة منذ هيجل حتى هتلر ، وبعد هتلر تبدأ المرحلة الثانية ، مرحلة التأويل الماركسى . ثم تأتى المرحلة الثالثة مرحلة التأويل الوقح ، ونفس الشىء فى وقت المرحلة التى امتدت من هيجل إلى هتلر ، نعلم الأطفال فى المدارس على أن ألمانيا يجب أن تهيمن على العالم ، ونعلم مع الأسف أن العالم كان دائمًا محكوم بالسلطة والمال وأنه سيكون كذلك دائماً.. إنه لأمر عبثى ، لأن العكس هو الصحيح، يكفى النظر إلى تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية حتى نتأكد من أن ٨٠٠٠٠٠ شخص ماتوا من أجل حرية الملونين .

– اليوم الخطر الكبير للعنف والحرب يظهر أنه يأتى من الوطنية ، كيف تنظر إلى التطلعات المتنامية للشعوب فى إقامة دولها المستقلة ، والتى نشاهدها حتى فى أوروبا ؟ هل ترى ذلك كخطر كانزلاق وتدهور للحضارة وتوجه نحو خطر الحرب ، أم أنك تراه حقًا للشعوب المتجانسة فى لغتها وانتسابها القبلى – الإثنى وديانتها ، أن تكون لها دولة ؟

– المسألة الأساسية أنه فى عالم مكتض كعالمنا ، فإن كل المشاكل المطروحة من قبل الوطنيات – التى يجب معالجتها حالة بحالة وفى كل تعقدها – يجب اعتبارها بأنها

خطيرة ، فهنا أو فى هذه الحالة تكون دولة القانون هى المعرضة للخطر أو هى المتهمة، وقبل كل شيء يجب القول أنه يجب حماية الأقليات ، وأننا لانتحدث على هذا دائمًا ، حسب رأيى ، فى الحوار الأوروبى حول الوطنيات ، بالرغم من أن كل الأسئلة السياسية للوطنيات تكمن هنا . وفكرة الدولة - الأمة ذاتها مستحيلة التحقيق إذا لم نقبل بهذا المبدأ . ما علينا إلا أن نفكر أن أوروبا ماهى إلا نتيجة للهجرات العرضية انطلاقًا من آسيا ، من أجل فهم هذه الحقيقة . أوروبا هى شبه جزيرة آسيا التى توجهت إليها شعوب وأقوام لأسباب مختلفة، وعندما وصلوا إلى الأطلنطى انقسموا ، والمجموعات المختلفة بعد ذلك اختلطت ، وهو ما أدى إلى أنه ما عدا ألمانيا ، لا يوجد بلد من دون أقليات ، لهذا السبب تبقى النقطة الأساسية هى حمايتهم، هذه هى الزاوية التى يجب أن تعالج به هذه المسألة، من غير المعقول بأن تكون كل الأقليات دولها ، يجب وضع سياسات حماية تستجيب لمتطلبات كل أقلية من الأقليات، خاصة فيما يتعلق بالتربية واللغة والدين .

٥ - لنرفض التاريخانية : يصبح المستقبل مفتوحًا(١) :

- لقد كنت دومًا تولى أهمية كبيرة لمفهوم التاريخ وهجومك على التاريخانية L' Historicisme بشكل خاص كان عنيفًا ، إنه واحدٌ من بين الأسباب التى تفسر أنه فى مرحلة من المراحل وفى بعض الأوساط الفكرية والثقافية ، مثل إيطاليا بعد الحرب وكذلك فى الستينيات والسبعينيات كنت - مع بعض الاستثناءات - أقل ترحيبا هنا . إنى أعترف لك أنه على سبيل المثال عندما قرأت بعض نصوصك فى شبابى كنت معجبًا ببعض أطروحاتك ولكن كنت أنفر من مناهضتك للتاريخانية ، فنقد الأنظمة الشمولية والطفيلية يبدو لى مقنعًا ولكن لم أستطع تحمل انتقاداتك المروعة للتاريخانية أو بالأصح مآخذك المروعة للتاريخانية وأكثر من هذا للماركسية ، قبل كل شيء كنت أقول فى نفسى يمكن كثيرًا أن نكون تاريخانيين وديموقراطيين .

(١) ترجم هذا النص الدكتور الزواوى بغورة .

– التاريخانية خطأ من أقصاها إلى أقصاها ، التاريخاني يرى التاريخ مثل مجرى الماء، مثل النهر الجاري ، ويعتقد أنه يستطيع أن يتوقع أين يمر الماء ، التاريخاني يعتقد أنه أكثر ذكاء، إنه يرى الماء ويتصور أو يتخيل أن بإمكانه أن يتكهن بالمستقبل . هذا الموقف هو – على المستوى الأخلاقي – خاطئ كلية، بإمكاننا أن ندرس التاريخ كما نشاء ، لكن هذه الفكرة الخاصة بالنهر ليست أكثر من مجاز ولا علاقة لها بالواقع وبالحقيقة ، يمكن أن ندرس ما مضى ، لكن ما مضى قد انتهى ، وانطلاقًا من هذا فإننا لسنا فى المستوى الذى يسمح لنا بالتنبؤ بأى شىء كان ، نتابع الاتجاه علينا فقط وببساطة أن نتحرك وأن نحاول جعل الأشياء أفضل أو أحسن ، فاللحظة الحاضرة هى اللحظة التى انتهى فيها التاريخ ، وأن ليس بمقدورنا أن ننظر إلى المستقبل ونحن نعتقد أنه بإمكاننا أن نتكهن به بفضل المجرى أو الاتجاه ، ولا يمكن لنا أن نقول : كنت أعرف أن المجرى سيمر من هنا .

– صحيح أن الأشخاص الذين يقولون أو يصرّحون : «كنت أعرف سلفًا بأن هذا سينتهى كذلك» غير مرغوب فيهم ، ولكن فى نفس الوقت كنت دائمًا أتساءل وأنا أقرأ سيرتك الذاتية وكذلك منذ بداية حوارنا ، عندما التقيت مع الإخوة "ايسلر Eisler" وكان عمرك سبع عشرة سنة ، ما هو الأثر وأنت ترى اليوم أن الكثير من الأحداث أو من الأشياء تبرر اليوم انتقاداتك التى شكلتها منذ فترة طويلة، لقد طرحت نقداً جذرياً للشيوعية وأنت كنت تقريبًا طفل. منذ عقود كان بإمكانك أن تقول : معى الحق وسيكتشفون ذلك عاجلاً أم آجلاً ، واليوم أمام أحداث الأشهر الأخيرة أليس لديك الرغبة فى أن تقول بدورك : «كنت أعرف أن النهر سيمر من هنا» ؟

– أنا سعيد لأن الأشياء حدثت كذلك، ولكن لا أشعر بالسعادة لأننى استطعت أن أعرف فى كل هذا الوقت أين يكمن الخلل ، لا يهم ، الآن يجب التفكير فيما يجب فعله ، وأن نبحث عن ماهو أفضل وعن ماهو واجبنا ، فما فات فات أو مامضى مضى ، يمكننا بالتأكيد أن نستخلص العبر والدروس ولكن لا أن نقوم بإسقاط من أجل استباق المستقبل، لأن هذا له علاقة بالانحطاط الرهيب للفن ، أريد أن أقول أن كل الذين رأوا الآثار الفنية الكبرى فى الماضى ، مثل آثار "مايكل أنجلو Michel-Ange" ، سيعتبرون أن الفن فى حالة تدهور وانحطاط ، وإنه لمن البديهى أن مايكل أنجلو كان

وسيبقى الأعظم ولا يجب أن تنتظر شبيهه أو ما يشبهه، ولكن هنالك انحطاط وتدهور ، هذا مؤكد ، فلماذا ؟ لأن كل الفنانين يحلّقون من حولهم ويحاولون أن يصبحوا رقم واحد في المستقبل، إنهم يسمعون – بكيفية ما – التاريخانيين الذين يتحدثون عما سيقع في المستقبل ، ويحاولون متابعة الاتجاه أو المجرى بدلاً من أن ينتجوا أعمالاً قيمة في الوقت الحاضر ، والأكثر من هذا أنهم مهتمون بأنفسهم أكثر من اهتمامهم بنوعية عملهم، وأيضا أنهم يسعون للمتنبئين السيئين وللفلاسفة السيئين ، الذين يحاولون التكهن بالمستقبل ، الكل يجتهد أو يجاهد في أن يكون سابقًا لزمانه ، في حين لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل لأن لا أحد يعرف المستقبل. انظر إلى ماركس أو لننظر إلى ماركس على سبيل المثال: كان يعتقد أن كل الآلات سيكون لها محرك بخاري وأن كل المحركات ستصبح كبيرة شيئًا فشيئًا، إن شيئًا مثل موس حلاقتي الكهربائي لم يكن ليخطر بباله ، والظاهر أننا نسير نحو آلات صغيرة شيئًا فشيئًا وليس إلى الكبيرة ، وأنها موجهة لاستعمالاتنا الشخصية . كان ماركس يرى من منظور الإنتاج فيما يتعلق بالأشياء المادية ، في حين أن التطور حدث من منظور الاستهلاك . إن الثورة الكبيرة التي لم يستطع ماركس إدراكها جيداً أو يفهمها بشكل جيد هي السكك الحديدية التي سمحت للناس أن يتحركوا ويتنقلوا ، والسكك الحديدية والقطارات لم تصنع من أجل الإنتاج ، فالعربات الأولى لم تستخدم لشحن البضائع أو السلع ولكن لنقل الأشخاص ، إننا نتحدث عن "العربة coaches (chariots)" وهنا ما زلنا نسميها كذلك أي منذ أن كانت تجر بالخيول التي تم تعويضها أو استخلافها بالمحركات البخارية التي سمحت بتشكيل قطارات تتكون من عربات عديدة ومن تخفيض أسعار النقل ، إنها خدمة موجهة إلى الأشخاص الذين يرغبون في زيارة أشخاص آخرين أو أن يزوروا مدنا أخرى ، أتفهم ماذا أريد أن أقول ؟ هذه كانت إحدى أكبر الثورات التي لم تحدث سابقًا أو قبل هذا التاريخ ، ولكن ماركس لم يرها على أنها ثورة .

ثم لاحقًا ، فإن هذه العملية قد استمرت مع "الثورة الفوردية la révoltion fordienne" بمعنى وباقتراح من "هنري فورد Henri Ford" لسيارات ملائمة للعمال وليس فقط لأصحاب الملايين ، وإذا كنت أتحدث عن كل هذا فلأنه يتعلق الأمر بثورات لا أحد

يستطيع أن يتوقعها، وبالتأكيد لم يتوقعها ماركس، وكذلك اليوم لا أحد يستطيع أن يعرف الاكتشاف الكبير القادم ، لقد كانت إحداها هى التلفزة ، التى تحولت إلى شىء مرعب فى الوقت الذى كان من الممكن أن تكون نعمة .

– إنك فعلاً لا تستطيع أن تتحملها ...

– لا ، إنى أقول فى هذا السياق أنى لا أملكها ، ولا أريد أن تكون معى .

– لقد وصلنا إلى طرح أو إثارة هذه الثورات التكنولوجية من أجل أن نقول إن هدف التاريخانيين الذى هو معرفة مجرى النهر فكرة لا أساس لها .

– إنها ببساطة فكرة غبية ، لأنها محاولة لاستكشاف تاريخ المستقبل ، فى حين أن خاصية التاريخ أنه يضعنا دائمًا أمام ثورة غير منتظرة أو غير متوقعة ، مثل ثورة الإلكترونيك .

– ولكن إنه من الإنسانى جدًا أن نطرح مشكلة معنى التاريخ أو بتعبير آخر أن نطرح مسألة فلسفة التاريخ ، إذا كان العلم يسمح بالتساؤل عن أبعاد الكون ، فلماذا لا نطرح مشكلة معنى التاريخ ، وإذا كان يتطور ففى أى اتجاه يمكن التعرف عليه ؟

– أعتقد أن هذا خطأ فكرى ، فلا حاجة لنا لمعنى التاريخ ، يمكن لنا أن نعجب بالتاريخ لأنه غنى بالأحداث التى تستحق الإعجاب وبأشخاص رائعين ، ويمكن أن يعلمنا مايجب أن نخاف منه، ومن بين الأشياء التى يجب أن نخاف منها هنالك ماتسميه بـ "معنى التاريخ Le sens de L'histoire" لأنه يزج بنا دائمًا وحصراً فى اتجاهات سيئة .

– فى روسيا هناك يتحدثون كثيراً عن ما يسمونه بـ «نقطة الدخول Le point d'entrée» الذى يبين بداية الخطأ "erreur" هذا الحوار يظهر أنه تجاوزته الأحداث ، ولكن يتعلق الأمر بتعيين اللحظة الأولية لعملية سلبية بغرض إيجاد «نقطة الخروج le point de sortie». أريد أن أعرف رأيك فى هذا الموضوع ، على الأقل لأنك من الذين يضعون أصل المشكل فى النقطة البعيدة فى الزمن أو فى أقصى نقطة من الزمن .

– كما سبق وأن قلت ، فإن الماركسية كانت خطأ عمليًا منذ البداية ، لأنه منذ البداية كانت الفكرة الماركسية تقتضى البحث عن العدو وليس البحث عن الأصدقاء الذين من الممكن أن يساعدوا فى إيجاد حل لمشاكل الإنسانية . أنت وأنا – على سبيل المثال – مهتمون بفكرة التعاون من أجل أن نساعد الناس ، حتى يستطيع النوع الإنسانى أن يجد حلولاً جيدة لمشاكله الأساسية . ماركس كان يبحث عن العدو الذى يقضى عليه ، وهكذا ابتدع الرأسمالية كعدو يجب قتله ، ليس هنالك نقطة دخول يجب البحث عنها فى مكان آخر . الخطأ كان هنا ومنذ البداية، إنه الكره بدلاً من المسئولية، كل الذين لهم مطامح كبيرة لايستطيعون تحقيقها ويكرهون العالم يرتكبون هذا الخطأ الأساسى ، وماركس ارتكبها منذ البداية بجعله للرأسمالية عدواً يجب القضاء عليه ، وإذا كنت تعتقد أنه كان من الممكن أن يمر كل شىء بشكل جيد وأنه فى مرحلة لاحقة من العملية تمت الأشياء بطريقة مغايرة ، فإنك تخدعهم ، لاشىء هناك .

– أعرف أن الخطأ الأساسى لماركس يعود – بالنسبة إليك إلى أصل تفكيره ذاته ، ولكنى أتساءل إذا كنا لانستطيع أن نعود إلى أبعد من ذلك إلى الخلف ، حتى إلى أفلاطون وأرسطو .

– نعم صحيح من الممكن أن نذهب بعيداً قبل ماركس ، لقد قلت ما أفكره فى التاريخانية ويمكن أن نعود إلى أصول النظرة "الغائية للتاريخ Téléologique" وإلى "الشمولية Totalitarisme" وإلى "أسطورة القدر Mythe du destin" ولكن هذا يؤدى بنا مباشرة إلى ماكتبته فى "المجتمع المفتوح وأعداؤه" .

– إذن لندع القراء إلى كتابك هذا بدلاً من الغوص فى التاريخ البعيد ، لنعد إلى الأسئلة الحالية : مثلاً الديموقراطية ، الشيوعية سقطت وتهاوت وهنالك بعد الآن إجماع واسع حول هذه الفكرة ، ولكن مع الإقرار بالمبادئ المجردة الأساسية للحرية والتى نحن متفقون حولها، فإن الديموقراطية مشاكل عدة وتناقضات وصعوبات جمة ، وهنالك مفهوم يتكرر دائمًا فى أعمالك إنه مفهوم المفارقات الديموقراطية ، فبم يتعلق الأمر ؟

– إنه سؤال هام جداً فى وقتنا هذا ، فإذا ما أخذنا بالترجمة الحرفية لكلمة الديموقراطية فى اليونان ، فإنها تعنى سلطة الشعب ، وهذا مفهوم يبعد بعض الشىء

عن النقطة الأساسية ، لأن المشكل الحقيقي للديموقراطية لا يطرح هنا ، إنه يتعلق بمنع إقامة الديكتاتورية ، أو بتعبير آخر منع انعدام الحرية ، أو منع قيام نمط من السلطة لا يكون دولة قانون، هذا هو المهم . وفي الحقيقة إن اليونانيين كانوا قد فهموا ومنذ القدم أن تحقيق الديموقراطية لايعني وضع الشعب في السلطة وإنما العمل بقوة على اجتناب خطر الطغيان ، من أجل هذا أدخلوا فكرة "الإبعاد L'Ostracisme" خلال ثمانين سنة ، إنهم لم يدخلوها إلا لأنهم كانوا خائفين من أن يبرز طاغية يتمتع بشعبية كبيرة ، أو ديكتاتور شعبي وديماجوجي وشعبوي ، كما نقول اليوم ، بمعنى شخص يمكن أن يصبح أكثر شعبية ويستقر في السلطة بسبب الأغلبية. فكرة الإبعاد ، تسمح باستبعاد كل شخص يمكن أن يصبح شعبيًا بشكل كبير من الوطن ، هذه الفكرة لاتطرح كما تطرح فكرة من يدان بسبب ارتكابه خطأ أو جرم أو كالذي يتم محاكمته بسب فعل من الأفعال ، إن الأمر يتعلق بضرورة التحفظ والاحتياط ، إن هذه الطريقة تستبعد أن يكون في الوطن شخص كثير الشعبية ، إنه يكفي قراءة الخطاب الجنائزي لـ "براكليس" الذي كتب بمناسبة موت "ثيوكديد" من أجل أن نفهم ماذا يعني هذا الاحتياط، وكما قال ذلك ذات مرة "تشرشل" في جملة أصبحت مشهورة : الديموقراطية هي أسوأ أشكال الحكم باستثناء الأشكال الأخرى التي هي أسوء منها ، الديموقراطية في ذاتها لاشيء مفيد فيها وكل ماهو مفيد يأتي من جهات أخرى ، لا من الديموقراطية، إنها ليست أكثر من وسيلة لتجنب الطغيان ، لا أكثر ولا أقل . بالطبع الديموقراطية تعني أن الجميع متساوون أمام القانون وأن لا أحد يجرّم أو يدان مالم تثبت عليه الأدلة.. إلخ. هذه المبادئ الأساسية جزء لايتجزأ من دولة القانون، ولكن لا وجود في الديموقراطية ، لمبدأ يجعل للأغلبيـة الحق ؛ لأن الأغلبية قد ترتكب أخطاء فادحة كأن تنصب طاغية ، وأن تنتخب طاغية ، كما يحدث دائمًا . في ألمانيا لم يحدث أن تحصّل هتلر على الأغلبية، لكن في النمسا تم اختياره بنسبة أربعة وتسعين في المئة من نسبة الناخبين .

– يمكن لنا إذن أن نقول أن الديموقراطية هي كيفية لحل النزا ع السياسي وذلك بتجنب الطغيان والديكتاتورية. ولكن هذا النزاع ، في وقتنا الحاضر، ألا يعني أننا نجد أنفسنا دائمًا أمام يسار ويمين ؟

– سبق لى وأن أجبت على هذا السؤال .

– لقد أجبت بأن – وبحسب رأيك – الوقت قد حان لتجاوز النزاع الأيديولوجى ولكنك لم تتحدث عن دور اليمين واليسار ، الآن مادمنا نعتبر أنه عمليًا قد انتهت المواجهة الأيديولوجية بين الشيوعية ومناهضة الشيوعية .

– أعتقد أن جوابى على هذا السؤال متضمن فيما قلته . الوظيفة الأولية لليسار هى مساندة المعوزين ، هذا المبدأ مازال مقبولاً ، إن الضجر والملل والسأم هو فى كون أن اليسار قد اندفع فى طريق سيء وتدهور عندما استمر فى أخذه فى اعتبار ، (ولأسباب أيديولوجية) ، بأن المعوزين هم البروليتاريا والعمال حتى عندما كفوا عن أن يكونوا كذلك .

– وعليه ومن أجل أن نختتم ، ما مهمات اليسار فى المستقبل القريب ؟

– يجب أن ننظر من حولنا وأن نسأل من هم المعوزين ، إنى أساند وأدعم بأن الفئة الوحيدة التى هى فى الوقت الحاضر ، يمكن اعتبارها كذلك ، هم الأطفال ، وحتى أكون جد واضح ، أقول أن الراشدين يرتكبون جرائمهم أمام أعين الأطفال ، هذه هى الوضعية التى استحدثناها أو ابتدعناها ، أى كل ما يجعل من الانحراف والإجرام أمام الأطفال يتخذ صبغة المثل أو يتخذ قيمة المثل أو النموذج. نحن بصدد نسيان أن كل الحيوانات تتعلم بالمثل ، ومن خلال ملاحظة ما يجرى فى محيطها كى تفعل نفس الشيء ، لتتحرك فى الوقت المناسب .

القسم الثانى

الدراسات

١ – ملاحظات حول نظرية وتطبيق الدولة الديموقراطية(١) :

أولاً – الآداب ، والعلم ، والديموقراطية ، هل توجد بينها علاقة ؟ وُجد بأثينا ابتداءً من سنة ٥٣٠ ق م سوق لم توجد سوق مثلها في مكان آخر : لقد كانت سوقًا حرة للكتب ، ومكانًا تباع فيه الكتب المخطوطة ، معروضة على شكل لفائف من البردي، وأول الكتب التي طرحت للبيع كانت الملحمتين الشعريتين العظيمتين لهوميروس : الإلياذة والأوديسا .

وحسب كتابات "سشرون Ciceron"، الذي عاش خمسين سنة فيما بعد ، فإننا ندين بتسجيل وتدوين أشعار هوميروس إلى طاغية أثينا "بيزيسترات Pisistrate"، إنه هو من بين آخرين الذي أسس التمثيليات الدرامية ، مؤسسًا بهذا ما نسميه اليوم المسرح ، وربما ، ومما لاشك فيه، هو أول ناشر لهوميروس ، وهو الذي أدخل المادة الضرورية للكتابة – البردي المصري – والذي اشترى العديد من العبيد المتعلمين القادرين على استنساخ أشعار هوميروس إملاءً ، لقد كان بيزيسترات غنيًا ، وكان يمنح بمناسبة الاحتفالات العامة للأثينيين تمثيليات مسرحية وغيرها من التظاهرات الثقافية ، وفيما بعد لعب أثينيون آخرون ، مقاولون ، دوّر الناشرين .

لقد كانوا منجذبين في هذه المدينة بواقع أن الطلب على أعمال هوميروس ، كان طلبا لا ينضب : الجميع يتعلم القراءة مع هذه النصوص ، والجميع يقرأ هوميروس ، وقريبًا سيصبح مؤلفه في نفس الوقت إنجيل وأبجدية أثينا ، وبسرعة فائقة نشرت كتب أخرى بدورها .

لا يجب أن ننسى أبدا أنه بدون سوق للكتاب لا يمكن أن يكون هناك نشر ، إن وجود مخطوط (أو كتاب مطبوع اليوم) في مكتبة لا يمكن أن يعوض عرضه في

(١) محاضرة غير منشورة ألقيت في ميونيخ سنة ١٩٨٨ ، في مؤتمر نظمه "بنك هوفمان" ، ولها ترجمة بالإسبانية ، في جريدة Nación سنة ١٩٩١ . ترجم هذا النص الأستاذ لخضر منبوح .

السوق وفى أوروبا لمدة طويلة (أعتقد ، مايقارب القرنين) لم توجد سوق للكتاب إلا فى أثينا، لقد كانت مدينتى كورنثا وطيبة أول مدينتين تحذوان حذوها .

لقد كان هناك طبعاً شعراء من قبل وحتى كتابات ، لكن لم يتمكن من تطوير آداب إلا فى أثينا ، (لأن هذا يفترض وجود مؤسسة نشر) وأنه ازداد عدد الكتاب والمؤرخين وعلماء السياسة والفلاسفة والعلماء والرياضيون .

القليل فقط من بينهم مثل "ثيوسيدث" ولد هناك ، لكنهم جميعا أجانب عن هذه المدينة، التى مارست عليهم جاذبية لا تقاوم، كان من بين الكتاب الذين وفدوا على أثينا والذين نشروا بها كتبهم العالم والفيلسوف "أنكساغوراس" و "هيرودوت" الأصغر ببضع سنوات منه ، أول وأعظم مؤرخ، لقد وفد كلاهما من آسيا الصغرى ، ولجأ إلى أثينا لأسباب سياسية ، أعتقد أن هيرودوت لم يكتب مؤلفه الكبير بنية نشره ، عكس أنكساغوراس ، فيما يتعلق بكتابه "حول تاريخ العلم الطبيعى" ، ذى الأبعاد الأكثر تواضعاً، وهذا يفسر الموقف المهزوز لهذين الكاتبين أمام الممارسة الحديثة آنئذ للنشر ، وهى الممارسة التى لا أحد يستطيع تصور ازدهارها اللاحق.

ثانياً – من أول كتاب منشور فى أوروبا إلى ثورة جوتنبرج Gutemberg :

الأعجوبة التى كانت عليها أثينا فى القرن الخامس ق.م على الصعيد الثقافى ، تفسر فى جزء أكبر (وهذا اعتقادى) خلق سوق الكتب ، والذى يفسر أيضا الديموقراطية الأثينية ، وبديهى جداً أن فرضية طرد الطاغية "هيبياس" من أثينا سنة ٥١٠ ق.م ، وتأسيس الديموقراطية حدثان مرتبطان بتأسيس سوق الكتاب ليسا قابلين للبرهان، لكن الكثير من العناصر تجعلنا نعتقد أنهما كذلك .

فن القراءة والكتابة اللذان نشرا بسرعة ، والشعبية الكبيرة لهوميروس ، وفى محيطه محيط الكتاب المسرحيين الأثينيين والرسامين والنحاتين ، والأفكار العديدة التى كانت تناقش ، والتطور الفكرى ، كلها وقائع لا يمكن إنكارها ، لكن حتى ولو سلّمنا أن تأسيس الديموقراطية استطاع أن يكون مستقلا عن هذه الأشياء ، التى كانت بدون شك متأثرة بخلق سوق الكتاب ، والنجاح الذى عرفته هذه الديموقراطية الأثينية الشابة خلال حروب التحرير ضد الإمبراطورية الفارسية العظمى هى بكل تأكيد مرتبطة بهذا السوق .

لا يمكن تفسيرها إلا بالوعى الجديد لدى الأثينيين بذواتهم ، الذى خوّل للأثينيين التراث الثقافى والتربوى الخارق للعادة واللذين تشكلا كذلك بواسطة حماستهم وتذوقهم للجمال ، والوضوح فى الفن والشعر .

ومما يثير الفضول دائمًا ، أنه عند اختراع "جوتنبرج" والتوسيع الكبير لسوق الكتاب الذى تبعه ، قاد هذا كله إلى ثورة ثقافية مماثلة : المذهب الإنسانى ، مع إعادة إحياء الآداب القديمة ، كل الفنون ازدهرت ، ومولد علم طبيعى جديد ، وبإنجلترا قاد الإصلاح إلى ثورتين: ثورة ١٦٤٨– ١٦٤٩ الدموية، وثورة ١٦٨٨ السلمية، التى سجلت بداية التطور العادى للبرلمان الإنجليزى نحو الديموقراطية ، فى هذه الحالة فإن الصلة ظاهرة للعيان .

ثالثًا – انتصارات ومساوئ الديموقراطية الأثينية : المعجزة الأثينية تعود إلى الأحداث المدهشة ، الثقافية والسياسية والعسكرية للقرن الخامس قبل الميلاد ، وإلى بداية القرن الرابع ق.م ، اللذين أعقبا خلق سوق الكتاب ، هذه الأحداث تصب فى المستوى نفسه للتطور السريع لآداب هى فى نفس الوقت منقطعة النظير ومثالية . هذه الأحداث تتضمن حربين ، دامتا كلتيهما ثلاثين سنة تقريبًا ، خلال الحرب الأولى حطمت أثينا، لكنها انتصرت، وفى الثانية منيت بهزيمة ساحقة. وهذا عرض كرونولوجى مختصر للوقائع الأكثر أهمية : ٥٠٧ تأسيس الديموقراطية الأثينية . ٤٩٣ : التسلح ، إنشاء الأسطول تحت قيادة "ثيمستكول Themistocle" ، ٤٠٩ : "معركة الماراثون Bataille de Marathon" . ٤٨٠: أصبحت أثينا مهجورة ومحطمة من قبل الفرس ، المقاومة تعتمد أساسا على الأسطول . معركة "سالامون Salamine"، ٤٧٩ : معركة "بلاتاس Platees وميكال Mycale" ، يطلب اليونانيون من الأيونين المهددين فى آسيا الصغرى ، وفى الجزر مساعدة أثينا وهو ما يؤدى إلى إنشاء الرابطة البحرية بين أثينا وديلوس ، وإلى ما يسمى "إمبراطورية بحر إيجه" وإعادة بناء أثينا، ابتداء من ٢٦٢ : يبدأ عصر بيريكليس، الأكروبول : معبد "البرتينون Parthenon" ، وابتداء من ٤٣١ : تبدأ حرب "البيلوبونيز" ، ٩٢٤ : مرض الطاعون ، يموت بيريكليس بالطاعون ، الحرب تتسع وتصبح أكثر دموية ، ٤١٣ : كارثة بصقلية : إبادة أسطول وجيش أثينا ، ٤١١ : انهيار الديموقراطية الأثينية . ٤٠٤ : انتصار إسبرطة على أثينا وإقامة حكومة عميلة

خاضعة لإسبرطة ، وفي خلال ثمانية أشهر تقتل هذه الحكومة الإرهابية المعادية للديموقراطية عدداً من الأثينيين يفوق العدد الذى شهدته خلال العشر سنوات الأخيرة من الحرب الأكثر ضراوة وهكذا ينتهى تاريخ الحرب البيلوبونيزية على العموم ، وهو ما يعطى بسهولة الانطباع بنهاية الديموقراطية الأثينية ، لكن هذا الانطباع خاطئ ، لم تكن النهاية .

فخلال ثمانية أشهر هزم الطواغيت الثلاثون ، من قبل مجموعة من الأثينيين الديموقراطيين خلال معركة "بيرى Pirée" ووقعت معاهدة سلام بين إسبرطة والديموقراطية الأثينية ، لقد نجت إذن أثينا من أهوال حرب مرعبة ومن خيانة بعض المواطنين المشهورين ، وابتداء من هذا التاريخ ، ولمدة تزيد عن نصف قرن اعتبر أعداء الديموقراطية الأثينية أنها لاتهزم ، غير أنها مع ذلك اقترفت أخطاء رهيبة ، وليس فقط أخطاء تكتيكية أو استراتيجية ، لكن أيضا جرائم ضد الإنسانية ، مثل تحطيم جزيرة "ميلوس" ، التى هاجمتها أثينا على ما يبدو دون أن يكون هناك استفزاز مباشر ، لقد قتل كل الرجال والنساء والأطفال ، وبيعوا عبيداً .

ما قيمة الحكم الظالم ضد سقراط (خلال محاكمة سياسية كان فيها المتُّهِم - بكسر الهاء - رئيس حزب) إلى جانب هذه الجريمة المرعبة؟ ثيوسيدس الجنرال الأثينى ، يحكى هذا الحادث بوصف دقيق ، لما كان : القرار الوقح ، الصلف ، الذى لا يغتفر ، لأغلبية كانت تعرف جيداً ماذا تفعل والتى كان يجب معاقبتها على هذا الخطأ ، ولقد كان هناك العديد من القضايا المشابهة لهذه .

هذه القضايا لا عذر فيها ، لكن عن طريق الصدفة ، كانت هناك قرارات أخرى نقلها إلينا ثيوسيدس ، وهكذا "ميتيلان Mytilene" قد نكثت ميثاق التحالف مع أثينا ، والتى قد تمردت ، وهزمت من قبل أثينا. أرسل الأثينيون باخرة بقيادة جنرال مكلف بقتل كل سكان ميتيلان ، لكن فى الغد ندم الأثينيون على ذلك ، فاستدعيت جمعية شعبية كما وصفها ثيوسيدس، يلقى ديوديت خطاباً يدعو فيه للرأفة والحلم ، التصويت لم يمنحه إلا أغلبية صغيرة ، لكن أرسلت مباشرة باخرة تتعقب الباخرة الأولى ، وربان الباخرة أسرعوا التجديف ليلاً ونهاراً بدون كلل ، حتى يصلوا فى الوقت المناسب لإلغاء الأمر السابق ، وهكذا نجت ميتيلين بأعجوبة من الفناء ، كما كتب ثيوسيدس .

رابعًا – لم تكن الديموقراطية أبدًا حكم الشعب،لا يمكنها ، ولا يجب أن تكون كذلك

لقد أدركتم – أعتقد – أن الديموقراطية تثير مشكلات ضخمة ، لقد كانت فى البداية ولازالت لحد الآن المشكلات الأكثر أهمية ، والأكثر صعوبة هى من أى نظام أخلاقى ، واحدة من هذه المشكلات تثير دائمًا الغموض ، والمأخوذة على أنها مسألة أخلاقية ، فى حين هى ليست إلا مسألة كلمات محضة ، وهى التالية : "الديموقراطية " تعنى "حكم الشعب" وهذا يجعل الكثير من الناس يعتقدون أن هذا المصطلح ضرورى لنظرية أشكال الدولة التى نعرفها اليوم ، فى الغرب ، باسم "الديموقراطيات" .

أنشأ اليونان أسماء مختلفة لمختلف أشكال إدارة الدولة ، وبكل بداهة ، لأنهم كانوا يريدون التساؤل عن : أشكال الحكومة الممكنة ، التى ، كانت جيدة أو سيّئة أو أفضل أو أسوأ. وميّزوا هكذا بين خمسة أنماط من الحكومات ، تبعًا للصفات الأخلاقية للقادة ، واستعملت هذه الفكرة فيما بعد من قبل أفلاطون ، وحولت إلى النسق التالى :

١-٢- **الملكية** : حكم رجل واحد خيِّر أو طيِّب ، وشكلها الفاسد هو الطغيان ، حكم رجل واحد شرير أو سيئ .

٣-٤- **الأرستقراطية** : حكم بعض الرجال الأخيار أو الطيبين ، شكلها الفاسد هو الأوليجارشية ، حكم بعض الرجال ليسوا طيبين ولا أخيار .

٥- **الديموقراطية** : حكم الشعب ، حكم العدد الأكبر ، حكم العامة . فى هذه الحالة بالذات ، يقول أفلاطون لا يوجد إلا شكل واحد : وهو السيئ ، لأنه يوجد دائمًا داخل العامة عدد كبير من السيئين أوالأشرار .

من المهم جداً بحث الإشكالية التى تضم هذا النسق ، بالفعل ندرك أن أفلاطون ينطلق من سؤال يبدو ساذجًا وهو : "إلى من يجب أن تعود قيادة الدولة ؟" من يجب أن يمارس السلطة العليا ؟ نستطيع بكل تأكيد أن نطرح هذا السؤال فى دولة صغيرة مثل الدولة – المدينة لأثينا ، التى تتعارف فيها الشخصيات جيداً ، ونلاحظ زيادة على ذلك أنه على مستوى ما – بدون شك لاشعورى – يبقى هذا السؤال اليوم فى قاعدة النقاش السياسي، إن ماركس ولينين وموسولينى وهتلر وأيضا معظم رجال السياسة

الديموقراطيين فكروا بدون كلل، أحيانا دون أن يدركوا المشكل الشخصي الأقصى ، وعندما صاغوا قواعد عامة فإنها كانت غالبا إجابات عن السؤال : من يجب أن يحكم ؟ كانت إجابة أفلاطون : "الأفضل هو الذى يجب أن يحكم" وهى إجابة أخلاقية واضحة، ماركس ولينين قالا : "إنهم البروليتاريون الذين يجب أن يحكموا" ، وليس كما هو الحال الآن الرأسماليون ، ويجب أن تكون لهم قيادة الدولة ، يجب أن يمارسوا حكمًا ديكتاتوريًا ! فى هذه الحالة العنصر الأخلاقى مستتر قليلاً ، لكن من الطبيعى الطيبون (الأخيار) البروليتاريون الذين يجب أن يحكموا ، وليس الرأسماليون الأشرار .

وحول هتلر فليس من الضرورة أن أفيض فيه القول ، إجابته هى ببساطة "أنا" من الواضح مثله مثل سابقيه ، كان يرى أساسيًا السؤال "من يجب أن يحكم". منذ حوالى خمسين عامًا اقترحت رفضه ودفنه إلى الأبد . يتعلق الأمر بالفعل بمشكلة خاطئة ، قادت إلى حلول ظاهرية ، وفى نهاية المطاف تافهة ، تبدو الحلول أن ما أملاها أمر أخلاقى ، بيد أنه من وجهة نظر أخلاقية غير أخلاقى إلى أبعد الحدود اعتبار الخصوم السياسيين أنهم سيئون أخلاقيا ، وأن الحزب الخاص هو الأفضل ، يقود هذا إلى الكراهية السيئة دائما ، ويقود إلى التشديد على السلطة ، عوض الانكباب على تحديدها، إذ أن ماكان يعنينا فى الدولة على مايبدو هو مقارنة أشكال الحكومة ، وليس الأشخاص ، والطبقات ، والأجناس ، ومن الممكن ربما حتى الديانات المفترض أنها جيدة أو سيئة .

لأجل هذا أقترح تعويض المشكلة الأفلاطونية "من يجب أن يحكم ؟" بسؤال آخر مختلف كلية : "هل توجد أشكال حكومة ، التى هى لأسباب أخلاقية ، جديرة بالعقاب ؟" وفى المقابل : "هل توجد هناك أشكال حكومية تسمح لنا بالتخلص من الحكومة السيئة ، أو غير الكفء فقط ، التى تسبب ضررا للبلاد ؟"

أؤيد أن هذه الأسئلة هى ضمنيا فى قاعدة ما نسميه "الديموقراطيات" ، إذ أنها مختلفة جداً عن سؤال أفلاطون "هل يعود الحكم إلى الشعب ؟" ، إنها فى أساس الديموقراطية الأثينية ، مثل "ديموقراطيتنا الغربية" الحديثة .

نحن الذين نُسمى ديموقراطيين ، نعتبر الديكتاتورية أو الطغيان كشيء سيئ أخلاقيًا ليس فقط صعب الاحتمال لكن أخلاقيًا لا يطاق، لأنه غير مسئول ، إن واقع تحملها يعطينا الشعور بالقيام بشيء من الشر ، بيد أننا مكرهون على تحملها ، هكذا كان موقف المتآمرين الألمان يوم ٢٠ جويلية ١٩٤٤ ، لقد حاولوا الإفلات من الفخ الأخلاقي الفظيع الذى وقعوا فيه ، لحظة تصديقهم الديموقراطي على قانون السلطات المطلقة لمارس ١٩٣٣ .

الديكتاتورية تفرض علينا موقف لسنا مسئولين عنه ، لكن لا نستطيع على العموم تغييره ، إن هذا إنسانيًا لا يطاق ، يتوجب علينا إذن على المستوى الأخلاقى التحذير من هذا النوع من المواقف ، إن هذا هو ما نحاول فعله بفضل أشكال الدولة المسماة "ديموقراطيات" وهنا تبريرها الأخلاقى الوحيد، الديموقراطيات ليست إذن سيادات شعبية ، إنها قبل كل شيء مؤسسات مزودة بوسائل الدفاع ضد الديكتاتورية، إنها لاتمنع سلطة من نمط ديكتاتورى ، جمعًا للسلطات ، لكنها تجتهد لتحديد سلطة الدولة .

إنه من الأساسى أن ديموقراطية مأخوذة بهذا المعنى، تمنح إمكانية التخلص من الحكومة دون إراقة للدماء ، عندما تتخلى هذه الأخيرة عن حقوقها وواجباتها ، لكن أيضا عندما نحكم على سياستها، جيّدة أم خاطئة.المشكلة ليست إذن هى مشكلة الحكم ، ولا معرفة من يحكم، لكنها مشكلة الحكومة ومعرفة كيف نحكم ، فالأساسى هو أن لا يكون للحكومة سلطة مفرطة ، بعبارة أخرى المشكلة هى مشكلة "كيف ؟" يتم إدارة الدولة. كان ذلك هو – ضمنيًا لكن محققًا – الموقف الذى تضمنه الديموقراطية الأثينية، وهو موقفنا أيضا ، أو يجب أن يكون موقفنا .

مهما كانت المجموعة التى نعرفها ونطابقها بالشعب، سواء تعلق الأمر بعسكريين أو موظفين، عمالاً ومستخدمين ، (بالعدد الذى نجد فيها صحافيين) معلقى راديو وتلفزيون، قساوسة، كتاب، إرهابيين أو مراهقين، فإننا لا نريد لا سلطتهم ولا هيمنتهم، لا نريد لا الخوف منهم ولا أن نكرَه على خوفهم ، نريد – ويجب علينا عند الاقتضاء – أن ندافع ضد مزاعمهم ، ذلك هو موضوع أشكال حكومتنا الغربية التى سواء نتيجة للعادة أو للبس لفظى سمتها ديموقراطيات ، والتى تعنى الدفاع عن الحرية الفردية ضد كل أشكال السلطة ، ماعدا سلطة واحدة : السيادة ، سلطة القانون .

خامسًا – النقطة الأساسية : الحكومة يجب أن نكون قادرين على خلعها من دون إراقة للدماء : وجهة نظرى هى إذن كالآتى : أهم شىء فى كل أشكال الحكومة هو قدرتنا على خلعها دون إراقة الدماء ، قبل أن تتولى حكومة أخرى زمام الحكم، وليس مهمًا جدًا حسب رأيى كيف يتم هذا الخلع – بواسطة انتخابات أم بواسطة قرار برلمانى - مادام الأمر يتعلق بقرار أغلبية الناخبين ، ممثلى هؤلاء، وأيضا قضاة المحكمة الدستورية . لا يوجد هناك حدث بيّن بوضوح كالطابع الديموقراطى للولايات المتحدة من حيث أن استقالة الرئيس ريتشارد نيكسون كانت فى الواقع عزلاً .

وفيما يتعلق بموضوع تغيير الحكومة ، هذه السلطة السلبية ، أى التهديد بالعزل هو أهم شىء ، وبالمقارنة مع السلطة الإيجابية لتعيين حكومة، أو رئيسها ، تكتسى أهمية ثانوية نسبيًا "لكن هذا ليس هو الرأى الشائع ، وبوجه ما فإن الحالة المبالغ فيها فى تعيين جديد هى خطيرة : يمكن أن تفسر كصك على بياض ممنوح من قبل الناخبين ، كشرعية باسم الشعب ، ومن خلال "إرادة الشعب" ، بيد أنه ماذا نعرف وماذا يعرف الشعب عن الخطأ ، وحتى الجريمة التى قد تتهم بها الحكومة التى اختارها .

نستطيع الحكم على حكومة أو على سياسة حكومة بعد فوات الأوان ، عندئذ من الممكن أن نمنحها تزكيتنا ، وإذن نعيد انتخاب هذه الحكومة ، نستطيع أيضا أن نمنحها ثقتنا مسبقًا ، لكن فى هذه الحالة نحن لا نعرف شيئًا، ولا نستطيع معرفة أى شىء ، نحن لا نعرف الحكومة، لا نستطيع إذن أن نفترض أنها ستسىء استعمال ثقتنا . ونقلا عما كتبه ثيوسيدس فإن بيريكليس قد عبّر بكل بساطة عن هذه الفكرة : "لأن هناك القليل من الناس ممن هم قادرون على تصور مشروع سياسى ، فإننا مع ذلك متساوون فى الحكم عليه"، إن هذه الصياغة الوجيزة ، تبدو لى أساسية ، ونسجل أنها ترفض مقولة حكم الشعب ، وحتى مقولة مبادرة الشعب ، وعوضتها بفكرة مختلفة كلية هى : المحاكمة بواسطة الشعب .

إن بيريكليس (إن لم يكن الأمر يتعلق بثيوسيدس قد كانا بدون شك كليهما لهما نفس الرأى) ، فسّر باختصار شديد فى هذا المقطع لماذا لا يستطيع الشعب أن يحكم حتى فى غياب أية صعوبة خاصة : لأن الأفكار الجديدة على الخصوص لا يمكن أن

تكون إلا عمل أفراد معزولين ، وحتى لو أمكن توضيحها وتحسينها بالتعاون مع الآخرين لكن فيما بعد ، خصوصاً إن هم استطاعوا أن يقوموا بتجربة حول النتائج التى قادت إليها هذه الأفكار - إذا كانت جيدة أم سيئة - وهذا التقدير أو التقويم بنعم أم لا ، فإن هذه القرارات يمكن أن تكون فى دائرة اختصاص هيئة انتخابية واسعة .

ولأجل هذا فإن عبارة مثل "المبادرة الشعبية" عبارة مضللة وتنتمى إلى الدعاية، فالأمر يتعلق على العموم بمبادرة بعض من الناس ، والتى ستكون فى جميع الحالات خاضعة للتقدير و للتقويم النقدى للشعب ، فالمهم إذن - فى مثل هذه الحالات - معرفة ما إذا كانت التدابير المقترحة تتجاوز مؤهلات الناخبين الذين يحكمون عليها. وقبل أن أمرّ إلى موضوع آخر، أريد أن أحذر من الخطر الكامن وراء ما نعلمه للشعب وللأطفال، بقولنا أنهم يعيشون تحت نظام حكم الشعب ، وهو ما ليس صحيحاً ، ولن يكون كذلك. وعندما يدركون هذا بسرعة، سيبدون تذمرا وسيشعرون خصوصاً بالخدعة ؛ لأنهم يجهلون كلية اللبس اللفظى التقليدى ، وسيكون لهذا نتائج وخيمة سواء على صورة العالم ، أوعلى مستوى السياسة ، ويمكن أن يقود هذا حتى إلى الإرهاب ، لقد عرفت حالات من هذا النوع .

سادسًا - الحرية وحدود الحرية : كما رأينا - بطريقة ما - نحن جميعا نتقاسم مسئولية الحكومة ، حتى ولو لم نشارك فيها مباشرة ، لكن فى المقابل هذه المسئولية المشتركة لحريات الكثير من الحريات : حرية التعبير ، وحرية الوصول إلى الخبر وإعطائه ، وحرية النشر وحريات أخرى غيرها. إن "إسرافا" فى "مذهب الدولة" ، يؤدى إلى غياب الحرية ، لكن يوجد أيضا إسراف فى الحرية ، يوجد بكل أسف تعسف فى الحرية تمامًا مثلما أن هناك تعسفا فى سلطة الدولة ، يمكن أن نتعسف فى حرية التعبير وفى حرية الصحافة التى يمكن أن تستخدم فى إعطاء أخبارٍ كاذبةٍ على سبيل المثال ، وإلى إثارة الفتن ، وبطريقة مماثلة تمامًا سلطة الدولة يمكن أن تضيّق بتعسف حرية الأشخاص . نحن بحاجة إلى الحرية لمنع الدولة من التعسف فى سلطتها ونحن بحاجة إلى الدولة لمنع تعسف الحرية ، وواضح أنها مشكلة لا يمكن حلها أبداً بالمعنى المجرد، ولا تنظيرياً بواسطة قوانين، يجب أن يكون هناك محكمة دستورية، وخصوصاً إرادة طيبة ،

يجب علينا التسليم أن الأمر يتعلق بمشكلة لا يمكن أبداً أن تحل كلية ، أو على وجه الدقة، المشكلة التى لايمكن أن تحل إلا فى نظام دكتاتورى، انطلاقًا من واقع القوة الأساسية للدولة التى نرفضها لأسباب أخلاقية، يجب علينا أن نقتصر على حلول جزئية وعلى تنازلات ، وحبنا للحرية لا يجب أن يقودنا إلى إهمال المشكلات المتصلة بالاستعمال المتعسف للحرية .

سابعًا – توماس هوبز، عمنويل كانط ، ويلهام فون هامبلدت، جون ستيوارت مل:
هذه المشكلات قد أدركت من قبل مفكرين قدامى ومحدثين، الذين (بالاستناد إلى مبادئ كلية) حاولوا تبرير ضرورة سلطة الدولة، وتعريف حدودها . انطلق توماس هوبز من فرضية أن الإنسان بدون دولة سيكون ذئبًا لأخيه الإنسان (homo homini lopus)، فنحن إذن بحاجة إلى دولة أكثر قوة قدر الإمكان، حتى نكبح الجريمة والعنف ، ونظر كانط إلى المشكلة بطريقة مغايرة ، كان يؤمن هو أيضا بضرورة الدولة ، وبتحديد الحرية ، لكنه أراد أن يختزل هذا التحديد إلى الحد الأدنى، لقد كان يأمل فى"دستور يهدف إلى أكبر حرية إنسانية طبقًا لقوانين معينة ، بحيث تتعايش حرية كل واحد مع حرية الآخرين"(٢) .

لقد أراد دولة عادلة قوية ، تضمن لكل مواطن أكبر حرية ممكنة بتحديد حريات الآخرين إلى الحد الأدنى، وفى الحدود التى تسمح بها حرية الغير، إن تطبيق الحرية كان بالنسبة لكانط ضرورى للتعايش الإنسانى .

هذه الفكرة الكانطية ، يمكن أن تفسر بالطريقة التالية ، اتهم أمريكى بتوجيه لكمة إلى شخص آخر ، فدافع عن نفسه بقوله أنه مواطن حر ، ويحكم هذا الواقع ، فلقد كان حرًا فى أن يوجه لكمته فى الاتجاه الذى بدا أفضل ، وهو ماردّ عليه القاضى بقوله : "إن حرية تهييجك لقبضة يدك لها حدود ، التى يمكن أحيانا أن تتغير، لكن أنف مواطنيك توجد دائمًا – تقريبًا – خارج هذه الحدود" .

(٢) E. Kant, Kritik der reinen Vernunft, Hambourg, Felix Meiner, Verlage, 1956, p.351; tra. Fr.Critique de la raison pure, Paris, PUF, 1963.cf. également Projet de paix perpétuelle et autree écrits de Kant.

في مؤلف سابق لكانط "حول المكان المشترك" : "ربما هذا صحيح نظرياً، لكن عملياً هذا لا يساوي شيئاً" (١٧٩٣). نجد نظرية للدولة وللحرية ، مؤسسة أكثر في الجزء الثاني من المحرّر الذي ينتقض ضد هوبز، يذكر كانط "المبادئ الخالصة للعقل" : "المبدأ الأول هو الحرية ، بصفته إنسانياً ، الذي عبر بمبدئه بالطريقة التالية بغية تأسيس تجمع (مدني) : لا أحد يستطيع إرغامي على أن أكون سعيداً بطريقة ما ، لكن كل واحد يستطيع البحث عن سعادته بالطريقة التي تبدو له أفضل (...) إن الدولة التي ستكون طبقاً لمبدأ الرفق نحو الشعب بعبارة أخرى، حكومة أبوية (unperium paternale) (...) ستكون أسوأ حكم استبدادي يمكن تخيله" ، حتى ولو كانت هذه الملاحظة الأخيرة تبدو لي مفرطة (بعد لينين، وستالين، وموسوليني، وهتلر) فإنني مع هذا متفق تماماً مع كانط ، لأن ما أراد قوله معارضا هوبز ، إننا لا نريد دولة قوية تكون ملزمة كثيرا ، ورفيقة كثيرة لحماية حياتنا التي هي بين يديها ، ضد هؤلاء الذئاب ، الذين هم نظراؤنا ، لكننا نريد دولة تكون فيها المهمة الرئيسية احترام وضمان حقوقنا. ستبقى هذه المهمة حاسمة ، حتى عندما تكون عكس مافكر فيه هوبز ، لو يكون للناس سلوك ملائكي تجاه بعضهم بعضاً ، بالفعل حتى في هذه الحالة ، إن الضعفاء جدا لن يكون لهم أي حق ضد الأقوياء الذين يشعرون إزاءهم بالعرفان لهم بتسامحهم ، وجود دولة قانون فقط هو الذي يستطيع حل هذه المشكلة ، ونخلق من هذا الواقع مايسميه كانط "كرامة الشخص".

هنا تكمن قوة الفكرة الكانطية للدولة وللعقل ، ورفضه للدولة الأبوية ، وفيما طوّرت أفكار كانط من قبل ويلهلم فون هامبلودت ، وهذا مهم معرفته إذ أن الكثير يعتقد أن هذه المبادئ لم تجد بعد كانط أي صدى بألمانيا خصوصا ببروسيا وفي الدوائر السياسية الكبرى .

كتاب هامبلودت كان تحت عنوان " مقالة حول حدود عمل الدولة " ولم ينشر إلا سنة ١٨٥١ ، لكنه كتب في وقت مبكر جداً، إنه من خلال مؤلف هامبلودت فقط وصلت أفكار كانط إلى إنجلترا ، أما فيما يتعلق بكتاب جون ستيوارت مل "في الحرية" (١٨٥٩)، فلقد استلهم من هامبلودت ، وإذن من كانط ، وعلى الخصوص فيما يتعلق بنقد الدولة الأبوية، إنه واحد من الكتب التي أثرت أكثر في الحركة الليبرالية –

الراديكالية الإنجليزية، لقد اجتهد كانط وهامبلوبوت ومل في تأسيس سلطة دولة ، بحيث تحصر في أضيق الحدود المكنة ، ولقد كانت فكرته تتمثل في أنه يجب أن تكون دولة ، لكننا نريد على الأقل ، أي عكس الدولة التوتاليتارية ، نحن لا نريد دولة أبوية توتاليتارية أو بيروقراطية ، باختصار نريد دولة حد أدنى (état minimal) .

ثامنًا – الدولة : دولة حد أدنى أم دولة توتاليتارية ؟ يجب أن يكون لدينا دولة ، دولة قانون ، مثلما هي في المصطلح الكانطي ، أي دولة تكون فيها حقوق الإنسان واقعًا ، ومثّل المعنى الثاني الكانطي أيضا دولة مؤسسة تجازي وتعاقب بالقانون القضائي الذي يحدد حريتنا قدر الإمكان طبعًا، وبالطريقة الأكثر عدلاً، فضلاً عن هذا يجب أن تكون أقل توتاليتارية ممكنة . من جهتي أعتقد مع ذلك أن كل دولة لها تركيبة توتاليتارية ، وحتى تركيبات كثيرة ، وأن هذه التركيبات هي الحاسمة .

إن المهمة الرئيسية التي تعود إلى الدولة – ما نشترطه فيها قبل كل شيء – هو الاعتراف بحقنا في الحرية ، وفي الحياة ، وإن كان ضروريا مساعدتنا في الدفاع عن حريتنا وحياتنا (وكل ما يستتبع) كحق، لكن هذه المهمة هي أبوية، حتى المهمة التي يسميها كانط "الرفق" لها بعد – في هذا المستوى الأول – أهمية قصوى غير قابلة للتنديد. عندما نرغم على وجوب الدفاع عن حقوقنا الأساسية لا يجب أن نُلقى لأعداء ، ولا لامبالاة من قبل الدولة (من قبل أجهزة الدولة) لكن نلقى العطف . في الواقع هذا الموقف هو موقف أبوي ، سواء منظور إليه من فوق (من وجهة نظر أجهزة الدولة التي يجب أن يحركها الرفق) ، أو سواء من أسفل (من وجهة نظر المواطن الذي يبحث عن المساعدة من أحد أكثر قوة منه) .

صحيح أن الحق ذاته في موضوعيته يقع فوق هذه العلاقات الشخصية الكلية، لكن الحق الذي يتجسد في داخل الدولة وفي قوانينها هو عمل إنساني ، وإذن غير معصوم، وبحكم واقع أن هؤلاء الرجال يكونون أحيانا أشرارا ، وأنه يجب أن نكون سعداء ، ومعترفين بالجميل ، حتى عندما يبرهنون تجاهنا – خلال سنوات عديدة أحيانًا– عن هذا الرفق الذي يعتبره كانط إنسانيًا فوق الحد ، كل هذا يبرهن أن التركيبة الأبوية تلعب في هذا الموضوع دورا معقدًا، الأشياء هي هكذا بكل أسف ،

وإنى أسلم بهذا على مضض ، لكنها الحقيقة ، ويتجاهلنا لهذه الحقيقة توصلنا فى مناقشتنا فى هذه السنوات الأخيرة ، إلى مماحكات منطقية ، وحتى إلى كلام يثير السخرية ، أريد الحديث عن الهجوم الراهن كلية الذى تتعرض له الدولة – الراعية .

أعتقد أن هذا الهجوم والنقاش الذى أحياه مهمٌ جداً ، ولكن كما يحدث فى غالب الأحيان إن الفلسفة الرائجة فى الوقت الحاضر لا يمكن للأسف مرة أخرى أن تؤخذ مأخذ الجد ، أى أن تبحث على إظهار أن نظرية الدولة الراعية ، التى تتبنى غالبًا طابعها الأخلاقى والإنسانى– فإنها تتعدى فى الواقع على أهم الحقوق الإنسانية – الحق فى تقرير المصير، الحق فى السعادة والشقاء حسب رغبتنا، هذا الحق الذى دافع عنه كانط ضد النظام الأبوى .

الهجوم الراديكالى الجديد ضد النظام الأبوى يحيل غالبًا إلى الفقرة التالية من كتاب جون ستيوارت مل "فى الحرية" التى يقول : "إن الغاية الوحيدة التى تسمح للناس – بصفتهم أفرادا وبصفتهم جماعات – إلى الحد من حرية عمل واحد منهم ، هى الدفاع الشرعى عن الذات (...) إن الغاية الوحيدة التى تسمح بصفة شرعية باستعمال القوة ضد عضو من مجموعة متحضرة، ضد إرادته، هى منع أن يلحق ضرراً بالآخرين ، وإن الحياة الكريمة لهذا العضو – كرامته الفيزيقية والأخلاقية – لا يمكن أن تبرر تدخلاً مثل هذا (فى حريته فى العمل)" .

لا أحد مرغم بالقانون لفعل أو عدم فعل أى شىء لأنه أفضل له ، بسبب أنه سيكون من الحكمة العمل هكذا (من وجهة نظر أشخاص آخرين) ، ولا حتى أن هذا سيكون وحده عدلاً (من وجهة نظر قضائية أو أخلاقية). هذه الفقرة التى هى – زد على هذا – غير ناجحة فى شكلها الإنجليزى الأصلى تعيد المبدأ الكانطى الذى يقول أن لكل واحد الحق فى أن يكون سعيداً أو شقياً كما يحلو له ، ويدين كل تدخل أبوى باعتباره غير شرعى ، إلا إذا كان هذا التدخل سببه تهديد لمصالح شخص آخر، فلا ولى ولا صديق ، ولسبب أقوى لا أية إدارة ولا مؤسسة (مثل مؤسسة البرلمان) ولا أى موظف ولا أى مستخدم يستطيع أن يدّعى الحق فى أن يكون وليًا على راشد، وحرمانه من حريته إلا إذا كان شخص آخر مهدداً .

ـ إنى موافق ، ومن يستطيع الاعتراض على مبدأ جون ستيوارت مل هذا ؟ لكن ما نتائجه ؟ هل يستطيع أن يستعمله بجدية فى الدفاع عن حرية الفعل؟ لنأخذ مثلاً موضوع جدل كبير : هل للدولة الحق فى إلزام مواطنيها على شد أحزمتهم عندما يقودون سيارة ؟ طبعا لا (حسب مبدأ جون ستيوارت مل) حتى عندما يرى الخبراء لأسباب تتعلق بالأمن والسلامة أنها ضرورية ، أى أنه خطير السير بدون حزام . لكن انتظروا ، في هذه الحالة أليست الدولة ملزمة بمنع حتى المسافر بصفته شخصا آخر أن يوجد فى هذا الموقف الخطير ؟

أليس لديها الإلزام بمنع السائق أن يقود مادام المسافر لم يقرر طبعًا بكل حرية ربط حزامه ؟ مثال آخر مثار وموضوع جدل كبير ، هو مثال منع التدخين ، واضح أنه تبعًا لمبدأ مل أنه لا يمكن أن يمنع عن شخص التدخين لأنه مضر به ، لكن بالنسبة للآخرين؟ عندما يقول خبراء دولة أنه غير صحى ، وحتى خطير استنشاق دخان الآخرين، أليست الدولة ملزمة بمنع التدخين في كل المواقف التى يكون فيها طرف آخر حاضر ؟

الموقف هو نفسه بالنسبة لمختلف أنماط التأمينات « على سبيل المثال ، التأمين على الحوادث » فى مبدأ مل ، لا يعنى أمر عام ، تحت طائلة متابعات الذى يتعرض لخطر التأمين ، لكن بالأحرى منع طرف آخر،على سبيل المثال « المستخدم » هو أيضا الذى تحت طائلة متابعات ، توظيف شخص يكون مسبقا وبكل حرية غير مؤمن، مشكلة أخرى يتحدث عنها كثيراً وهى مشكلة المخدرات ، فحسب مل واضح أن كل شخص يتمتع بجميع ملكاته الذهنية (سواء أكان عمره أربع عشرة سنة ، أم عشرين أو إحدى وعشرين سنة لا يهم) ، له حق لا يقبل الاستلاب ، فى تحطيم نفسه بكل حرية بتعاطيه المخدرات، وأن الدولة لا يمكنها أن تحرمه من هذا الحق . لكن الدولة أليست ملزمة بمنع أشخاص آخرين من خلق موقف أكثر خطورة؟ أليست إذن ملزمة ، كما تقوم بذلك فى الوقت الحاضر ، بمنع بيع المخدرات، وتهديد المخالفين بالعقوبات الأكثر قساوة ؟

أنا لا أزعم أننا نستطيع بهذا المنهج ، معالجة جميع المشكلات التى تطـرح ، لكنه يبدو أنه فعال جداً. حالة السائق التى تبدو معقدة بالمقام الأول، يمكن أن تحل ببساطة شديدة، يجب على الدولة أن ترغم تحت طائلة العقوبة كل شخص يسير بسيارة

تحت تصرف شخص آخر – ببيعها له أو بكرائها – أن تجعله يكتتب بكل حرية وثيقة يلتزم فيها بدفع قيمة مضافة ، إن هو نسى قبل الانطلاق شد حزامه .

وأضيف أنه سيكون ممتازا أن نذكر أجهزة الدولة (ليس فى فائدتها ، لكن فى فائدتنا) ، وبفضل هذا الإجراء للتدخل ليس لها الحق فى إلزام شخص على فعل شيء "فى فائدتها" تستطيع أن تمنح مطلق الحرية إلى غرائزها الأبوية– أو تقريباً كما يحدث هذا حاليًا – لكن تحت شكل محسن ، وتحت حجة العمل على حماية الآخرين ، إن المال المدفوع للدولة – الراعية ، يستخدم ليس لتأمين نواتنا ، لكن لحماية الآخرين ، وكل واحد حر كلية فى دفعه ، لكن لا يستمر فى أخذ حقوقه فى الحماية الاجتماعية .

مبدأ مل الذى أقبله تحت الصيغة التالية (كل واحد حر فى أن يكون سعيداً أو شقيًا كما يحلو له ، شريطة أن لا يعرض هذا شخصًا آخر للخطر ، لكن الدولة مسئولة عن واقع أن المواطنين الذين ليسوا على علم ، يتعرضون لمخاطر يمكن تجنبها لأنهم غير قادرين على تقدير خطورتها بأنفسهم) .

لا يستطيع هذا المبدأ أن يقدم إلا مساهمة صغيرة فى النقد الأساسى فى ذاته للدولة الراعية ، بالفعل إذا كان اهتمامنا المشروع بدولة حد أدنى لا علاقة له بمبدأ مل فى المقابل له علاقة كبيرة بـ "الدولة – الراعية" état-providence، لأنه يؤدى إلى اقتراح خصخصة التأمين الاجتماعى .

ولكى أختم أريد أن ألاحظ أنه توجد وظيفة تقليدية للدولة التى أحب أن أصفها بأنها زائدة غير ضرورية، مثل وظائف العديد من المهمات الأخرى، لكن للأسف لا يمكن اعتبارها كوظيفة ، فهى للأسف الشديد لازالت ذات أهمية عالية ، ولا يمكن أن تسند إلى مؤسسة خاصة ، أريد الحديث عن الدفاع عن الأمة. من الواضح أنه يتعلق من مختلف وجهات النظر بوظيفة أبوية ، وأن أهميته الراهنة تختزل بوضوح الاهتمام الذى تعرضه على المستوى الفلسفى ، النظريات المعادية للأبوية . ومن جهتها هذه النظريات المتفائلة تبدو أنها تسلم أننا نستطيع أن نغرق مشكلة الدفاع عن الأمة بتجاهلها بكل بساطة ، إلا أنها فى نفس الوقت ذات أهمية قصوى ، وذات تكلفة غالية جدا،إنه أسوأ تهديد تواجهه دولة الحد الأدنى état minimal ، هذه المسألة تذكرنا بوظيفة أخرى

أكيد أنها أقل تكلفة، والتى هى وثيقة الصلة بالدفاع الوطنى، إنها السياسة الخارجية ، هى أيضا ذات أهمية ، كلتا المسألتين لهما نتائج تؤدى إلى ظهور فكرة دولة الحد الأدنى كمثال Ideal بعيد وطوباوى ، والذى مع ذلك لا يجب لهذا أن نتخلى عنه ، دولة الحد الأدنى لا تبقى إلا مبدأ معيارياً منظماً . وأريد مع ذلك التذكير بشىء آخر أيضا : أن الدولة التى هى تحت واجب وإلزامية الدفاع عن الأمة يجب أن تراقب استعداد مواطنيها على حمل السلاح ، وإذاً : صحتهم أيضا ، ويجب عليها حتى مراقبة بعض نقاط الاقتصاد ، لأنه يجب على الدولة أن تكون بحوزتها احتياطات معتبرة ، وتدعيم سير وسائل التنقل ، والإشارة ، وأشياء أخرى عديدة .

تاسعًا – حقوق القصّر : بكل أسف أحياناً من حيث المبدأ ولأسباب أخلاقية ، فإن الأمور لا تسير بدون حد أدنى من السلطة ، عندما تعترف الدولة بالحق الذى لمواطنيها فى أن يحموا من قبل الشرطة ضد السرقة، يجب عليها أيضا أن تعترف بالحقوق التى للقصر، فى أن يكونوا محميين بما فيها عند اللزوم من آبائهم ، إنه بالضرورة حق أبوى من حيث المبدأ ، البديل "دولة حد أدنى أم دولة متسلطة ؟" .

إنه يعوّض إذن بمشكلة "سلطة لا تكون أكثر مما هو ضرورى أخلاقيًا" ، ومكان التفوق الأخلاقى لمبدأ دولة الحد الأدنى على مبدأ الدولة الأبوية ، المتعجرف أخلاقيًا ، يعود إلى التعارض القديم بين الدولة والحرية ، وإلى القاعدة المعادية للديكتاتورية لكانط التى تقول : "إن الحرية لا يجب أن تكون محدودة ، أين لا تكون ضرورة لذلك" .

عاشرًا – حل مشكلة البيروقراطية والبيروقراطية العسكرية : نقطة هامة فى كل نظرية للدولة غير الاستبدادية "وإذن الديموقراطية" هى البيروقراطية ، لأن (البيروقراطية هى الديموقراطية) بالمفهوم الذى أعطيته لهذا المصطلح ، إنها تحوى العديد من "الديكتاتوريين ذوى الأرجل الصغيرة" ، الذين هم عمليًا ليسوا مجبرين على إدراك أعمالهم . اعتبر ماكس فيبر « المفكر العظيم » أن هذا المشكل غير قابل للحل مما دفعه إلى التشاؤم ، وفيما يتعلق بى فإننى أخاله سهل الحل نظريًا ، إذا كانت مبادئنا الديموقراطية معترفًا بها ، وإذا نحن نريد حقا حلا لهذا المشكل ، وبالمقابل أنا لا أؤمن البتة أنه من الممكن حل مشكلة البيروقراطية العسكرية. إن الخطر من قوة

عسكرية تتنامى بشكل لامتناه ، والتى ليست تحت رقابة الرأى العام ، هى واحدة من الأسباب التى من أجلها أن الكائن المتفائل يضع ويجب عليه أن يعلق كل أمله فى سلام عالمى ، حتى وإن لم يزل بعيداً ، إنه "السلام الأبدى" لكانط ، لكـن مادمت أتعرض لهذا الموضوع يجب أن أوضح فى صالح السلام أننى معارض لما يسمى الحركة من أجل السلم . يجب علينا أن نستخلص الدروس من تجاربنا ، خلال مرتين من قبل فإن حركة السلم ساهمت فى تشجيع المعتدى ، إن الأمير غليـوم الثانى ، حسب أنه لأسباب سلمية ، فإن إنجلترا وإن كانت ضامنة فى بلجيكا لن تتخذ قرار الدخول فى الحرب ، وهتلر فكر بنفس الطـريقة ، بما أن إنجلترا كـانت ضامنة لبولونيا .

حادى عشر– أمل الشبيبة : ديموقراطياتنا الغربية – وخصوصاً الولايات المتحدة – الأقدم فى الديموقراطيات الغربية ، هى نجاح لا سابق له ، هذا النجاح هو ثمرة الكثير من العمل، الكثير من الجهد لكثيرمن الإرادات الطيّبة ، وقبل كل شيء لكثير من الأفكار الخلاقة فى ميادين متعددة، النتيجة هى أن عدداً كبيراً من الناس السعداء يحيون حياة أكثر حرية ، حياة أجمل، وأطول مما لم يكن أبداً من قبل ، أعرف طبعاً أن كثيراً من الأشياء يجب أن يتحسن . النقطة الأساسية هى بكل تأكيد أن ديموقراطياتنا لا تتميز تميزاً واضحاً عن ديكتاتوريات الأغلبية، لكن لحد الساعة لم يكن هناك أبداً فى التاريخ، دولا استطاع الناس العيش فيها بحرية ، وأن يحيوا حياة كذلك جميلة أو أفضل مثل هذه ، أعرف أن عدداً ضئيلاً من الأشخاص يشاطروننى هذا الرأى ، أعرف أن عالمنا له كذلك جوانب سيئة ، الجنوح ، والقساوة والفظاظة ، والمخدرات ، إننا نرتكب أخطاء عديدة ، حتى ولو أن الكثير منا يستـخرجون دروسا من أخطائهم ، فـإن بعضـهم ينغلقون فى أخطائهم ، لكن هذا العالم يفرض علينا بعض المهمات ، نستطيع أن نعيش فيه سعداء وراضين، لكن يجب أن يقال هذا، إذ أننى لا أسمعه تقريبا أبداً . كل يوم بالمقـابل ، أسـمع التأوه والإرغـاء والإزباد من هذا العالم المكروه كمـا يزعمـون ، الذى حكم علينا العيش فيه ، أخال أن نشر هذه الأكاذيب هو أكبر جريمة فى عصرنا لأنه تهديد للشبيبة ، التى نريد أن نحرمها من حقها فى الأمل ، وفى التفاؤل ، فى بعض الحالات هذا يقود إلى الانتحار ، وإلى المخدرات ، أو إلى الإرهاب .

ثاني عشر – النزعة التفاؤلية وخطر وسائل الإعلام : ولحسن الحظ كثيراً ، الحقيقة قابلة للتحقق بسهولة : والحقيقة هي أننا نحن في الغرب نعيش أفضل العوالم التي لم توجد أبداً ، لا نستطيع أن نسمح بأن تسكت على هذه الحقيقة وسائل الإعلام التي هي بهذا الاعتبار المتهمة الكبرى، يجب أن يقنع أصحابها بأنهم يسببون خسائر خطيرة ، يجب إقناعهم على التعاون. يجب حث وسائل الإعلام على رؤية وقول الحقيقة ، وإدراك المخاطر التي هم سببها ، وأن يقوموا مثل كل المؤسسات السليمة بنقدهم الذاتي ، وأن ينبّه بعضهم بعضًا ، إنها مهمة جديدة بالنسبة لهم ، لكن الأضرار التي يسببونها في الوقت الراهن هي أضرار مهمة إذا لم يتعاونوا ، سيكون مستحيلاً كلية أن نبقى متفائلين .

٢ – الحرية والمسئولية الفكرية[١] :

المستقبل جد مفتوح ، ومتعلق بنا نحن ، بنا جميعاً ، إنه متعلق بما تفعله وأفعله ويفعله غيرنا من الناس اليوم وغداً وبعد غد ، وما تفعله وما سنفعله متصل هو الآخر بفكرنا ورغباتنا وآمالنا وتخوفاتنا ، بتعبير آخر إنه متصل برؤيتنا للعالم وبحكمنا وتقديرنا للإمكانيات الكبيرة والواسعة والمفتوحة التي يحملها لنا المستقبل .

هذا يعني أن علينا مسئولية كبيرة ، مسئولية تكبر وتعظم عندما نعي الحقيقة التالية : نحن لا نعرف شيئاً ، أو في أحسن الأحوال نحن نعرف القليل من الأشياء بحيث ننظر إلى تقديرها بأنها «لاشيء» ، إنها لاشيء مقارنة بما يجب معرفته حتى نتخذ القرارات الصائبة .

إن سقراط هو أول من فهم هذه الحقيقة ، لقد كان يقول بأن على رجل الدولة أن يكون حكيماً – بمعنى أكثر حكمة حتى يعرف أنه لا يعرف شيء ، وكذلك كان أفلاطون يقول أن رجل الدولة ، والذي هو الملك ، يجب أن يكون حكيماً ، إلا أنه كان يريد أن يقول شيئاً مخالفاً لسقراط . لقد كان يريد أن يقول بأن الملوك يجب أن يكونوا فلاسفة وكان عليهم أن يذهبوا إلى مدرسته لكي يتعلموا الجدل الأفلاطوني – وهو شيء في غاية العلم والتعقيد – أو الأفضل أن يتولى الفلاسفة اللامعون والمتمكنون الحكم ، مثله على سبيل المثال، أي يجب أن يصبحوا ملوكاً يسيرون العالم . هذا الاقتراح نسبه أفلاطون إلى أستاذه سقراط مما خلق نوعاً من سوء الفهم ، فلقد تحمس الفلاسفة بسماعهم هذا الاقتراح الذي يجعلهم ملوكاً ، [والفارق كبير بين ما ينتظره سقراط وأفلاطون من رجل الدولة الذي ضاع وذهب في ضباب الجدل الفلسفي؟] لهذا السبب أريد مرة أخرى أن أوضح هذا التمييز أو الفارق : إن العبارة : «يجب أن يكون رجل الدولة حكيماً» تعني بالنسبة لأفلاطون ، هو الفيلسوف المتمكن érudite له الحق في السلطة،

(١) Texte inédit d'un disscours prononcé pour le (Liberales Forum) ed l'universsité de Saint - Gall (Suisse) en 1989.

– ترجم هذا النص الدكتور الزواوي بغورة .

من هنا طموح المثقفين والمفكرين والنخبة إلى السلطة ، أما بالنسبة لسقراط فإن الأمر على غير ذلك كلية ، لأن نفس العبارة تعني أن على رجل الدولة أن يعرف إلى أي حد وإلى أي نقطة يعرف القليل من الأشياء ومن هنا يجب عليه أن يكون في غاية التواضع في طموحاته، لقد كان يرى أن على الحاكم أو رجل الدولة مسئوليات عظيمة وكبيرة في قضايا الحرب والسلم وأن عليه أن يعرف حجم المأساة التي يمكن أن يحدثها ، إنه يعرف أنه يعرف القليل من الأشياء ، «اعرف نفسك» ، هذا ما كان يطالب به سقراط ، «اعرف نفسك ، واعترف أنك في غاية الجهل !»(٢) .

هذا هو توجه سقراط ، أو الحكمة السقراطية ، «اعرف نفسك واعترف بجهلك» ، وعموماً فإن الأفلاطوني ليس ملكاً، وإنما قائداً كليّ العلم **Omniscient** لأحد الأحزاب أو لحزب ما ، وحتى لو كان حزبه لا يتشكل بشكل عام إلا منه أو من شخصه ، وفي المقابل هنالك قادة كل الأحزاب، وبشكل خاص قادة الأحزاب المعادية والأحزاب الناجحة ، كلها أفلاطونية، لأنهم هم هؤلاء الأشخاص الأفراد المتفوقون والمتكونون بشكل أفضل وبالتالي الأكثر حكمة، والذين يرى أفلاطون عليهم أن يكونوا قادتنا.

«من يجب أن يحكم ؟» هذه هي المسألة الأساسية في الفلسفة السياسية الأفلاطونية ، وجواب أفلاطون هو: المتفوق لأنه هو في نفس الوقت الأكثر حكمة ! تبدو هذه الإجابة من النظرة الأولى صحيحة ؟ ولكن ما الذي يحدث لو أنه قدر أنه ليس بالمتفوق ولا بالأكثر حكمة ، ألا يجب في هذه الحالة أن يرفض الحكم أو السلطة ؟ هذا ما فهمه أحد أتباع وتلامذة سقراط من المتفوق والأكثر حكمة ؟ كان يتصور أن الشخص الذي يعتقد أنه المتفوق والأكثر حكمة يصاب بهذيان أو بمرض العظمة ، وأن مثل هذا الشخص لايمكن أن يكون لا خبيراً ولا حكيماً(٣) .

ومن البديهي فإن سؤال أو مسألة «من يجب أن يحكم» قد طرحت بشكل خاطئ ، بالرغم من أنه وإلى يومنا هذا مازالت تطرح على هذا الشكل ، ونعود دائمًا إلى الحل الذي قدمه أفلاطون ، ومنذ زمان كانت الإجابة هي : إن الإمبراطور الذي اعتلى العرش بواسطة الجند أو العسكر، لم يعتله إلا لأنه هو وحده يستطيع أن يحكم وأن يقوم في

(٢) Xénophon : Mémorables, chap, 11, 6.

(٣) Id., ibid.

الحكم، ثم لاحقًا أصبح : الأمير الشرعي بواسطة العناية الإلهية . كما طالب ماركس كذلك : لمن تحق له السلطة ، السلطة الديكتاتورية ، البروليتاريون أم الرأسماليون ؟ وكان جوابه هو : البروليتاريون الجيدون ، الذين لهم الوعي الطبقي ، وبالتأكيد ليس الرأسماليون الشريرون والأنانيون ، وليس كذلك وبالتأكيد البروليتارية الرثة ، هؤلاء الذين لايستحقون إلا التوبيخ (عندنا لم يعد لهم وجود) .

إن معظم المنظرين للديموقراطية يواصلون هم كذلك الإجابة على سؤال أو مسألة أفلاطون «من يجب أن يحكم ؟» ونظرياتهم تقتضي تعويض الجواب الذي ظهر منذ العصور الوسطى وكأنه بديهي وهو «الأمير الشرعي بواسطة العناية الإلهية» والذي تم تعويضه بـ «الشعب بواسطة العناية الإلهية» وهكذا نقلد العبارة «بواسطة العناية الإلهية» ونعوضها بعبارة من نوع : «الشعب بواسطة العناية الشعبية» ، هذا ما كان يقال في روما القديمة "صوت الشعب هو صوت الله .vox populi, vox dei" .

إننا نجد دائمًا مسالة أفلاطون «من يجب أن يحكم ؟» وإن لها دائمًا أهمية كبيرة في النظرية السياسية ، وفي النظرية الشرعية ، وخاصة في النظرية الديموقراطية ، فنحن مازلنا نقول أن للحكومة الحق في الحكم مادامت شرعية ، بمعنى عندما تكون منتخبة من طرف غالبية الشعب أو من طرف ممثلي الشعب وبالاتفاق أو المطابقة مع أحكام الدستور، ولكن لايجب أن ننسى أن هتلر قد وصل إلى الحكم بطريقة شرعية وأن القانون الخاص بتخويله جميع السلطات قد تمت المصادقة عليه من طرف الأغلبية البرلمانية، إذًا إن مبدأ الشرعية لايكفي، إنه إجابة لسؤال أفلاطون، وعليه فإن مايجب تحويله وتحويره وتغييره وتعديله هو السؤال ذاته .

لقد رأينا أن مبدأ السيادة الشعبية هو كذلك شكل إجابة ممكنة، وإن كان يتعلق الأمر بمبدأ خطير ، لأن ديكتاتورية الأغلبية يمكن أن تكون مرعبة بالنسبة للأقلية .

لقد مرت هنالك أربعة وأربعون سنة منذ الآن ، عندما كنت قد نشرت كتابًا هو : "المجتمع المفتوح وأعداؤه" والذي كتبته كمساهمة في فهم الحرب العالمية الثانية، في هذا الكتاب اقترحت تعويض سؤال أفلاطون «من يحق له الحكم ؟» بسؤال مختلف عنه جذريا وهو : «كيف يمكن تصور تنظيم الدولة بصفة تسمح لنا من التخلص من الحكومة من دون إراقة للدماء ؟» ، هذا السؤال يركز على عملية إقالة حكومة وليس على عملية تشكيلها .

إن كلمة الديموقراطية التى تعنى «حكم الشعب» هى مع الأسف خطيرة، كل فرد من أفراد الشعب يعرف تمامًا أنه لا يحكم ، ومن هنا لديه انطباع بأن الديموقراطية تعتبر نوعًا من الاختلاس والنصب والاحتيال. وهنا يكمن الخطر. من المهم أن نتعلم ومنذ الدراسة بأن كلمة «الديموقراطية» منذ الديموقراطية الأثينية، هى الاسم التقليدى الذى نطلقه على دستور يمنع قيام ديكتاتورية أو طغيان ، الديكتاتورية والطغيان هى أسوأ الأشياء ، مثلما نراها الآن فى الصين ، بحيث أنه لايمكن التحرر منها من دون إراقة الدماء، وفى الغالب حتى مع إراقة الدماء : فإلى يومنا هذا مازالت الديكتاتوريات قوية جداً مثلما لاحظناها بمناسبة تلك المحاولة الثائرة ضد هتلر فى ٢٠ جويلية ١٩١٤ .

ولكن كل ديكتاتورية هى لا أخلاقية ، كل ديكتاتورية هى أخلاقيا سيئة ، إنه المبدأ الأخلاقى الأساسى للديموقراطية ، مفهوم على أنه شكل الدولة الذى يسمح بإقالة حكومة من دون إراقة للدماء. الديكتاتورية سيئة أخلاقيا لأنها تدين وترغم مواطنى الدولة ضد وعيهم وضد قناعاتهم الأخلاقية للتعاون مع الشر، ولو بالصمت ، إنها تحرم على الإنسان مسئوليته الأخلاقية، وهو من دونها ليس إلا نصف إنسان أو أقل من ذلك ، وفى ظل ديكتاتورية ، فإن أى محاولة من أجل تحمل المسئولية الإنسانية تصبح محاولة انتحارية .

يمكن أن نبين تاريخيًا أن الديموقراطية الأثينية كانت أو على الأقل حتى زمن "بريكلس Périclès" و "ثيوكيد Thucydide" لم تكن تعنى سيادة الشعب بقدر ما كانت وسيلة لمنع قيام الطغيان ، لقد كان الثمن باهضًا ، وربما كان زائدًا لأنه تم إلغاؤها بعد أقل من مئة سنة ، لقد كان هذا الثمن هو النفى والإبعاد والنبذ والطرد"Ostracisme" الذى فهم في الغالب بطريقة خاطئة ، بحيث أن كل مواطن يصبح أكثر شعبية أو يتمتع بشعبية خطيرة يجب أن يبعد ، بسبب هذه الشعبية ذاتها ، هكذا تم طرد وإبعاد رجال الدولة المتمكنون مثل "أرستيد Aristide" و "ثمستوكل Thémistcle" وسيكون من العبث القول أن أرستيد قد تم إبعاده لأنه كان يشكل عقبة لتوجهات أو لخطط ثميستوكل أو أن كنيته «العادل» قد أثارت غيرة مواطنيه ، هذه أمور لاعلاقة لها بالإبعاد. إن كنيته تشير إلى أن أرستيد كان أكثر شعبية وأن مهمة ووظيفة الإبعاد بالتحديد كانت تقوم على منع الوصول إلى السلطة أو الحكم لديكتاتورية شعبوية "Populiste"، هذا هو سبب إبعاده ، وهو السبب نفسه في إبعاد ثمستوكل .

حتى بريكلس يظهر إنه تفطن إلى أن الديموقراطية الأثينية ليست سيادة شعبية وأن مثل هذه السيادة لايمكن أن تكون ، وبالفعل ففي خطابه المشهور والذي يمكن لنا أن نقرؤه في ثيوكيد ، يقول : «على الرغم من أن هنالك قلة من الأشخاص الذين يمكن أن يكون لهم مشروع سياسي أو أن يبلوروا مشروعاً سياسيًا ، إلا أننا قادرون على تقييمه والحكم عليه» ، هذا يعني أننا لانستطيع الحكم أو ليس كلنا قادرون على الحكم ولكننا قادرون على الحكم على الحكومة وبإمكاننا أن نقوم بدور لجنة التحكيم .

هذا ما يجب أن يحدث في نظري يوم الانتخاب : إنه ليس اليوم الذي نعطي فيه شرعية للحكومة الجديدة ، ولكنه اليوم الذي نعلن فيه حكمنا على الحكومة السابقة، اليوم الذي تقدم فيه الحكومة حسابها عن أفعالها .

أريد أن أبين باختصار أن الفرق بين الديموقراطية بوصفها سيادة شعبية والديموقراطية بوصفها محكمة شعبية لها آثار عملية ، وليست فقط نظرية أو لفظية ، ذلك أننا نرى أن مبدأ السيادة الشعبية يؤدي إلى منح تمثيل نسبي لكل مجموعة رأي وكل حزب بما فيهم أحزاب الصغيرة ، يجب أن تكون ممثلة حتى يكون التمثيل البرلماني مرآة الشعب وحتى تتحقق فكرة الحكم بواسطة الشعب أو حكم الشعب بأكبر قدر ممكن . لقد قرأت اقتراحا مرعبًا مفاده أن كل مواطن ومواطنة يجب أن ينتخب مباشرة من خلال ضغط بواسطة زر كهربائي على كل القضايا التي يتم مناقشتها في التلفزة من خلال ممثليهم ، ويقال أيضا أنه في إطار التوجه الديموقراطي بوصفه حكم الشعب ، من المفيد تثمين عمل الجمعيات .

من وجهة النظر القائلة أن الديموقراطية محكمة الشعب والتي أدافع عليها ، فإن الأشياء تبدو مغايرة تمامًا، ذلك أنني أعتبر تكاثر الأحزاب شؤمًا وعليه فإنني ضد النظام الانتخابي القائم على النسب ، بالفعل فإن تجزُّء أو تقطع أو تعدد أو تكاثر الأحزاب يؤدي إلى حكومات إئتلاف حيث لا أحد مسئول أمام محكمة الشعب ، لأن كل شيء يؤدي ضرورة إلى نوع من التسوية. ومن جهة أخرى يصبح من الصعب التخلص من الحكومة لأنه يكفي إيجاد حليف جديد أقل أهمية في الإئتلاف من أجل القدرة على الاستمرار في الحكومة. في المقابل إذا كان هنالك عدد قليل من الأحزاب فإن الحكومات تكون بالضرورة حكومات أغلبية أساسًا ومسئولياتهم واضحة ومحددة ، ومن

جهة أخرى أعتقد أنه من غير المفيد والمجدى أن تكون آراء الشعب تعكس نسبيًا وبدرجة أقل على مستوى الحكومة ، هذا يؤدى إلى لامسئولية الحكومة ، لأن المرآة لاتستطيع أن تكون مسئولةً بالنسبة إلى أصله .

ولكن الاعتراض القوى الذى أرفعه ضد نظرية السيادة الشعبية أنها تغلب أو تفضل أيديولوجية لا عقلانية ، ومشعوذة : الشعوذة المتسلطة والنسبية حيث أن الشعب (أو الأغلبية) لايمكن أن يخطئ أو أن يسلك سلوكًا غير عادل . هذه الأيديولوجية لا أخلاقية ويجب رفضها . منذ ثوكديد نعرف أن الديموقراطية الأثينية (والتى أقدرها على أكثر من صعيد) قد اتخذت قرارات إجرامية ، فلقد هاجمت (ليس من دون أن تعلن إنذارًا) الجزيرة المحايدة "ميلوس Méélos" قبل أن تقتل كل الرجال وتبيع كل النساء والأطفال فى الأسواق الكبرى كعبيد، هذا ما تستطيع القيام به الديموقراطية الأثينية .

والبرلمان الألمانى لجمهورية "فيمار Weimar" ، انتخب حرًا، واستطاع من خلال تشريعات دستورية وأصوات شرعية أن يصنع من هتلر ديكتاتورًا ، وحتى إذا لم يربح هتلر الانتخابات الحرة فى ألمانيا والنمسا بعد إلحاقه عنوة لهذا البلد، فإنه سيحقق انتصارًا انتخابيًا كليًا .

نحن جميعًا أو كلنا معرضون للخطأ مما يعنى أن الشعب هو كذلك يخطئ مثله مثل أية جماعة إنسانية ، وإذا كنت مع فكرة أن الشعب يجب أن تكون له سلطة إقالة حكومة ، فلأننى لا أعرف أفضل طريقة لتجنب الطغيان ، وحتى مقولة أن الديموقراطية هى محكمة الشعب كما أدافع عنها لا ينقصها شىء ، وأن العبارة المجازية التى قالها "ونستون تشرشل Winston Churchil" تنطبق عليها : «الديموقراطية هى أسوأ أشكال الحكم باستثناء جميع الأشكال الأخرى» ، باختصار إن الفرق بين الفكرتين - الديموقراطية بوصفها سيادة الشعب والديموقراطية بوصفها محكمة الشعب ، أو بوصفها وسيلة تسمح بتفادى حكومة طغيانية – ليس فرقًا لفظيًا، إن لها نتائج تطبيقية هامة، وتتعلق ببلد مثل سويسرا بالرغم من أنه فى المدارس والثانويات – كما أعرف – مازلنا ندافع دائمًا على النظرية الأيديولوجية الخطيرة لسيادة الشعب ، وليس النظرية المتواضعة والواقعية لديموقراطية بوصفها وسيلة للتخلص من الديكتاتورية والتى لاتحتمل وأخلاقيًا لا يمكن الدفاع عنها .

أريد أن أعود الآن إلى نقطة البداية، أو إلى النقطة التى بدأت بها ، المستقبل جد مفتوح ويمكن أن نؤثر فى الـذى يأتى ، علينا إذن مسئولية كبيرة ما فى ذلك شك ، فماذا يمكن لنا أن نفعله من أمر إيجابى ؟ هل يمكن لنا أن نفعل شيئًا يمنع ما هو مرعب مثل الذى يحدث فى أقصى الشرق ؟ أريد أن أحدثكم عن الوطنية والعنصرية وعن ضحايا "بول بوت Pol Pot" فى كمبوديا وضحايا آيات الله فى إيران، عن الضحايا فى روسيا وأفغانستان وعن الضحايا الأخيرة فى الصين ، ماذا يمكننا أن نفعله من أجل تجنب أو منع هذه الأحداث المرعبة؟ هل نحن فى مستوى يمكننا من تجنب مثل هذه الأشياء ؟

جوابى على هذا السؤال هو : نعم ، أعتقد أننا نستطيع فعل الكثير، وعندما أقول «نحن» فإنى أتحدث عن المثقفين ، بمعنى الرجال الذين يهتمون بالأفكار، أى أولئك وبشكل خاص الذين يقرأون والذين من الممكن أنهم يكتبون ، فما الذى يجعلنى أفكر بأننا نحن المثقفين نستطيع أن نلعب دورًا إيجابيًا ؟ إنه وببساطة ومنذ قرون ، فإننا نحن المثقفين كنا سببًا فى كوارث مروعة ، القضاء على كتل أو جماعات باسم فكرة أو عقيدة أو نظرية .

هنا يكمن أثرنا أو عملنا واختراعنا : الاختراع الفكرى ، وفى حالة ما إذا توقفنا عن توجيه الناس ضد بعضهم بعضًا - وفى الغالب بمقاصد طيبة - وحتى إذا ماتوقفنا عند هذا الحد فإن هذا كاف وكثير أيضًا ، ولا أحد يستطيع أن يزعم أننا لانستطيع فعل هذا أو لا أحد يستطيع أن يزعم أنه مستحيلٌ بالنسبة لنا .

من بين أهم الوصايا العشر تلك الوصية التى تقول : لاتقتل أبدًا ! إنها تلخص تقريبًا كل الأخلاق ، وكذلك الكيفية التى طرح بها "شوبنهاور Schopenhauer" أخلاقه والتى ليست أكثر من امتداد لهذه الوصية الرئيسية ، أخلاق شوبنهاور أخلاق بسيطة ومباشرة وواضحة : لا تخطئ فى حق أحد، لا تجرح أحدا ، وبالعكس ساعد الجميع قدر استطاعتك .

ولكن ما الذى حدث عندما نزل موسى من جبل سيناء حاملا الألواح الحجرية

وقبل حتى أن يتلفظ بالوصايا العشر ؟ لقد اكتشف بدعة قاتلة ، بدعة العجل الذهبي. هنا نسي الوصية القائلة «لاتقتل أحداً» وصرخ : «لتأت إليّ رعية الربّ [...] هكذا تحدث الربّ إله أسرائيل : كل واحد يقلد سيفه [...] وكل واحد يخنق أخاه ، وصديقه ، وقريبه [...] وهكذا في هذا اليوم سقط ثلاثة آلاف رجل» .

هكذا ربما كانت البداية ، ولكن المؤكد أن الأمور استمرت بهذا الشكل في الأرض المقدسة وبعدها هنا في الغرب ، وخاصة بعد إقامة المسيحية بوصفها ديانة الدولة ، إنه التاريخ المرعب للاضطهاد الديني القائم باسم الأرثوذوكسية ، وبعد ذلك وخاصة في القرنين السابع عشر والثامن عشر هنالك أسباب أيديولوجية أخرى تداعت الواحدة بعد الأخرى لتبرير الاضطهاد والوحشية والرعب : الوطنية والعرق ، والطبقة ، والبدعة السياسية أو الدينية .

إن تصورات الأرثوذكسية والبدع تستر العيوب الأكثر حقارة والأشد خساسة ، عيوباً نكون عرضة لها نحن المثقفين أو نكون موضوعا لها مثل : العجرفة والكبرياء والغطرسة والثقة من أننا على حق دائم ، والتحذلق أو "ادعاء العلم Pédentisme" والغرور الفكري أو الزهو الفكري ، هذه العيوب خسيسة ، ولكنها ليست خطيرة مثل القساوة والفظاعة والوحشية ، ولكن القساوة ليست بعيدة أو غريبة عن المثقفين . في هذا المجال أيضا لدينا نصيبنا من هذه الأمور، يكفي التفكير في الأطباء النازيين الذين يقتلون الشيوخ والرجال المعمرين والمرضى قبل أن يحدث "أوشويتز Auschwitz" وإلى ما كان يسمى بـ "الحل النهائي Solution finale" للمسألة اليهودية .

إنه دائماً نحن المثقفين الذين بحقارة وغرور وكبرياء قمنا ونقوم بأسوأ الأشياء ، نحن الذين لهم واجب خاص إزاء أولئك الذين لم يتعلموا ، نحن خونة الفكر أو الروح كما قال المفكر الفرنسي الكبير "جوليان بوندا Julien Benda" ، نحن الذين ابتدعنا ونشرنا الوطنية كما بين ذلك بوندا ، ونقلد كل الموضات الغبية ، نريد أن نظهر وأن نتحدث لغة غير مفهومة ولكنها مبهرة جداً ، لغة العلماء ، لغة الدكاترة المصطنعة والتي أخذناها من أساتذتنا الهيجليين والتي نجدها عند كل الهيجليين ، هذا هو فساد اللغة ،

اللغة الألمانية ، التي نتنافس بها فيما بيننا ، وهذا هو العائق الذي يمنع كل تبادل معقول بيننا حيث الواقع يحجب عنا تلك الوضعية ، وضعية أننا دائمًا نقول الحماقات ونصطاد في المياه العكرة .

إن الأضرار التي تسببنا فيها في الماضي كانت أضراراً مرعبة ، ولكن منذ ذلك الوقت بمعنى منذ أن أصبحنا أحراراً في قول كل شيء وكتابة كل شيء – هل يمكن أننا أصبحنا أكثر مسئولية ؟ لقد كتبت ذات مرة حول اليوتوبيا الأفلاطونية ، على أن الذين اقترحوا أو ابتدعوا فكرة الجنة على الأرض قد تسببوا كذلك في الجحيم أو لم يحدثوا إلا الجحيم ، ولكن هناك كثير من المثقفين المتحمسين كثيراً لجحيم هتلر ، فعالم النفس السويسري الكبير "كارل جوستاف يونج Carl Gustav Jung" اكتشف المصير الجديد للروح الألمانية أو الجرمانية ، وخاصة أنه لايخشى كثيراً مادام يعيش في سويسرا ، وبعد موت هتلر نسى ما كتبه ، وبحث وعالج الطبيعة السيئة للروح الألمانية. إنه مع اتفاقهما الأطلنطي ، استطاع تشرشل و "فرانكلين دولانو روزفلت Franklin Delano Roosevelt" أن يقيما ويؤسسا عالمًا جديداً ، وهذا بفضل الطيارين الشباب للطيران الحربي والعسكري، أولئك الذين كانوا يواجهون خطر الموت في المعركة البريطانية الفاصلة سنتي ٤٠ و ٤١ ، والذين ضحوا من أجلنا . ومنذ الانتصار على هتلر فإن أوروبا الغربية لم تعد تعيش في جهنم هتلر، ولكن في جنة السلم الأوروبي ، في عالم هو العالم الأفضل والعادل الذي عرفه التاريخ ، ولو أن "ستالين Staline" قد تعاون لكنا نعيش اليوم وبفضل الأمم المتحدة ليس فقط السلم في أوروبا الغربية وشمال الأطلنطي ولكن كنا نعيش السلم العالمي ، ولأصبح "مشروع مارشال Plan Marshall" مشروعًا عالميًا .

ولكن ما إن بدأ يظهر هذا الجديد ويقوم ويتأسس – وبدا أن الأمور تسير نحو الأحسن في الغرب – حتى انفجر عراك كبير، بلعنات المثقفين ضد هذه الحقبة السيئة ، ضد متعتنا ، ضد حضارتنا ، ضد عالمنا الجميل ، لقد بدأت هذه المزايدات غير المحتملة والمبالغات المرعبة حول الهدم والتلوث الذي أحدثناه ، بواسطة طعم الكسب والربح ، من أجل هدم وتخريب بأقصى سرعة ممكنة آثار عالم كان جميلاً. ألخص بأننا جميعًا سنموت إن عاجلاً أو آجلاً ، وأن الخطر قائم ودائم منذ البدايات أو منذ الأصول للحياة بما في ذلك البيئة أو المحيط .

للمرة الأولى منذ تكونت وتشكلت منظومتنا الشمسية لدينا المقدرة بفضل علوم الطبيعة والتكنولوجيا والصناعة أن تفعل شيئًا من أجل البيئة . وكل العلميين والتقنيين يعملون في هذا الاتجاه ، ومع ذلك فهم متهمون بهدم وتخريب الطبيعة في هذا الوقت ومنذ سنوات، فإن بحيرة "زريخ Zurich" العجيبة وبحيرة "ميتشقان Michigan" العظيمة وعلى الأنهر التى تقع عليها "شيكاغو Chicago" قد تم إنقاذها من دون تهويل أو عراك ، ولقد تم حفظ الحياة في هذه البحيرات بفضل تعاون العلم والتكنولوجية والصناعة ، إنها المؤسسة الأولى من هذا النوع في تاريخ نظامنا الشمسي وهذا منذ ظهور الحياة.

العالم ليس من السهل تسييره؛ فكل نوع من أنواع الحياة وكل صنف من أصناف النباتات وكل نوع من أنواع البكتيريات تؤثر على المحيط والبيئة بأنواع أخرى ، وبتأثيرنا نحن قد يكون الأكبر من نوعه ولكن فيروسًا جديدًا أو وباء جديدًا أو وباء بكتيريًا جديدًا يمكن أن يسحقنا في سنوات أو أعوام معدودة .

ليس من السهل الاحتفاظ بمراقبة الطبيعة ، وأن الديموقراطية ليست هي أيضا بالشيء الهين ، وكما أشرت إلى ذلك فإن تشرشل الذى قال بأن الديموقراطية هي أسوأ أشكال الحكم باستثناء جميع أشكال الحكم ، ولكن ما لم يقله تشرشل بشكل واضح وهو ما أريد أن أضيفه : بالنسبة للحكومات الديموقراطية هي النظام الأقل راحة ؛ لأن الحكومات مهددة باستمرار بالإقالة ، وعليها أن تقدم الحساب لكم ولي، فنحن لجنة الحكم أو القضاة ، ولكننا قد نتعرض الخطر وذلك عندما نفتن أو نغوى بالمروق أو الذى يدرس عالميًا بين فترة وأخرى ، إنه ماكان يسميه "هيجل Hegel" بـ "روح الزمن Esprit du temps" والذى يشكل خطرًا دائمًا ، الأيديولوجيات الجديدة أو تلك الأيديولوجيات على شكل "موضة Mode" ، والتى هي دائمًا غبية بلا حد ، وتعتبر دائمًا الخاطئ صحيحًا حتى عندما يكون الحقيقي بديهيًا ، كل هذا يفتن لجنة الحكم أو الحكام أو القضاة أو أعضاء لجنة الحكم الذين هم نحن .

لقد استطاع هتلر – مثله مثلي – أن يتعلم من أساتذة متحمسين لكل ما يؤمنون به ومن أعماقهم : بأن العالم يسير من طرف الروح الألمانية، وكان أدولف هتلر يؤمن بهذا، مثله مثل كثير من الشباب من مختلف الطبقات الفقيرة ، هؤلاء الملايين من الشباب الشجعان والذين هم وخلال الحربين الألمانيتين ماتوا من أجل الهيمنة على أوروبا

وهنالك شباب آخر فقير أكثر عدداً وأكثر شجاعة قد دخلوا معهم في الموت ، ولكن هؤلاء الأعداء يكافحون بشجاعة من أجل الحرية والسلم في حين أن الشباب الألماني من أجل عظمة وتفوق ألمانيا ، من أجل الإمبراطور من أجل الرب الأعظم للحرب ، من أجل "الفوهرر Fuhrer" .

اليوم بإمكاننا ومن واجبنا أن ننظر إلى الحقيقة كما هي ، الأيديولوجية الألمانية كانت وهماً، كما بيّنها أحد أكبر المؤرخين البارزين الألمان "فريتز فيشر Fritz Fischer" لنكن أكثر وضوحاً : لقد كانت أكذوبة ، هذه الأيديولوجيات الغربية على الرغم من سخريتها وسخفها وعلى الرغم من تواترها وتكرارها الكاذب، إلا أنها حقيقية ، فالغرب كافح من أجل السلام ولقد تحصل عليه في أوروبا، هذه المنطقة التي كانت دائماً مسرحاً للحروب القاسية ، ولقد تحصل عليه تقريباً في كل مكان كان فيه للغرب تأثير .

ولكن المثقفين غير المسئولين لم يستطيعوا أن يروا إلا الشر في عالمنا الغربي ، لذا أسسوا الديانة الجديدة التي تعلّم أن العالم ظالم وأنه محكوم بالخسارة وآيل إلى الضياع، لقد بدأوا يعلموننا ذلك بكتاب "أوزوالد شبنجلر Oswald Spengler" في كتابه "انحطاط الغرب" أو سقوط الغرب "Le Déclin de l'Occident" لأن هؤلاء المثقفين يريدون أن تكون لهم صفة الجدية والإبداع ، وأن يستطيعوا قول أشياء مخالفة أو معارضة أو مناقضة أو مضادة للبديهيات ، ولقد نجحوا في التعتيم ليس فقط على البديهيات بل كذلك على الحقيقة الموضوعية .

إلا أنني لا أريد أن أقوم بمحاسبة واسعة للمثقفين، وإنما أريد أن أدعوهم إلى الاعتراف بمسئولياتهم تجاه الإنسانية والحقيقة. إن حريتنا تسمح لنا بقول كل شيء ، حريتنا تسمح لنا حتى بقذف العالم الحر، وبتصويره على أنه عالم فاسد وقبيح وسيئ . إن هذا من حقهم ، ولكن هذه ليست الحقيقة ، وإنه لأمر لا أخلاقي أن نبث الأكاذيب، حتى عندما يكون لنا الحق في ذلك ، إنه ليس فقط لا أخلاقي ولكن غير مسئول أن نضع في خطر التوجيهات(٤) الكبرى التي رسمها لنا تشرشل وروزفلت ، بطلا الحرب ،

(٤) فضلنا الحديث عن التوجيهات الكبرى بدلاً من الأقدار الكبرى المنصوص عليها ، لأننا نعتقد أن السياسات خطط وليست أقدار ، ولكن من الواضح أن بوبر ينسى مهمة العالم ليصبح أيديولوجي ليبرالي محافظ حتى النخاع بل حتى التدين .

ومشروع مارشال الذى حققوه ، وأن لا ننتقص من قيمتهما وأن نقدم الطيب على أنه خبث والجيد بأنه سيئ .

أريد أن أذكركم اليوم بأن الروس بدأوا يعترفون بعالمنا ويسلمنا ويقدرون أن سلمًا موسعًا بشكل معتبر ليس مستحيلاً ولا يتوبيا أو خيال، إنه من واجبنا أن نجتد كل طاقاتنا وننتهي من تعطيل هذه الإمكانية بتغليطنا الحقيقة حول الجنة والنار وجهنم.

وفى النهاية نحن فى الغرب فى السماء ، فى السماء الأولى بطبيعة الحال ولسنا فى السماء السابعة ، وجنتنا جد متطورة ومكتملة ، و يجب علينا أن لا نحط من قيمتها أو نقلل من سمعتها وأن نفترى على عالمنا الذى هو أحسن العوالم التى وجدت ، وخاصة فى أوروبا، والحقيقة أننا مستعدون للإصلاحات القادمة ، وفى الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من أى مكان آخر .

نحن رجال نوو إرادات طيبة مشبعة بالتفانى وإنكار الذات والتضحية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن جنودنا قد قدموا الدليل والشهادة . إن الشروط الأساسية متوفرة لإقامة السلم في الأرض وعلى الكرة الأرضية ، إلا أن هناك شرط أساسى لازم وهو أن الروس يجب أن يتعاونوا معنا، وإذا ما فعلوا فإنه من الممكن أن نحقق حلم تشرشل وروزفلت ليس فقط فى أوروبا ولكن فى العالم أجمع .

إنه وللمرة الأولى منذ الحرب العالمية الثانية يبدو أن الروس مستعدون للتعاون ! فـ "سخاروف Sakharov" المعتزل الكبير والشجاع قال : لايجب أن نعول أو نتكل أو نثق فى الديكتاتور "جورباتشوف Gorbatchev" القوى جداً ، كما قال أيضا إن الاتحاد السوفياتي يمكن أن يكون فى حالة التفكك ، إلا أننا لا نأمل ذلك ، لأنها ستؤدى إلى معاناة لأحد لها وستؤدى إلى أخطار كبيرة على السلم . ومن الممكن أن تؤدى إلى ديكتاتورية عسكرية ، ديكتاتورية أكبر قوة عسكرية (...) برية وبحرية وجوية لم يعرف مثيلها ، وهو ما يلغى كل أمل فى السلام .

إن "جورج صوروص George Soros" الذى يعرف جيداً روسيا (وإن كان أقل من سخاروف) حلل كل هذه الأخطار فى مقال مهم نشره فى مجلة "New York Review of Books" حيث يعتقد أن روسيا تبحث فعلاً عن التعاون مع الغرب، الروس يعرفون أنه عندنا توجد الجنة والجحيم .

وحتى يكون هذا التعـاون ممكنا يجـب أن نكون على وعـى إلى أين وصلنـا ، وما يمكن للحرية أن تسمح به كما يبين ذلك نموذجنا أو مثالنا ، ثم بعد ذلك نستطيع أن نطلب كيف وصلنا ؟ وأن نعرض مساعداتنا لروسيا إذا كانت مستعدة لتفكيك سلاحها ، ولكن علينا أن نتخذ جميع الاحتياطات الضرورية .

هذه الإمكانيات المعروضة علينا اليوم، إنها تطالبنا – نحن المثقفين – أن نرى أخيراً الحقيقة الموضوعية ، ونتوقف عن خلط الجنة بالجحيم ، كما كنا نفعل فى الماضى .

يجب أن ندرك أننا لا نعرف شيئا ، أو تقريبا – فى الغالب – لاشىء ، وأن جورباتشوف فى نفس الوضعية التى نحن فيها، من أجل أن نقترب من السلم ولو بخطوة يجب أن نتخلص من الأيديولوچيات ، أو نتخلى عن الأيديولوچيات ، وخاصة تلك المتعلقة بنزع السلاح من جانب واحد ، فهى خطيرة جداً على السلم . يجب أن نتحسس الأرضية بحذر مثلما تفعل "السرافات Chenilles"(٥) ، وأن نبحث عن الحقيقة بكل تواضع، يجب أن نتوقف عن لعب دور الأنبياء أصحاب العلم بكل شىء ، مما يعنى أنه علينا أن نتغير .

(٥) نوع من أنواع الدود ، وهى دودة الفراش منذ خروجها من البيضة حتى تتحول إلى طاردة .

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت : شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت : يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت : مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت : محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت : أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت : عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت : حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت : بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت : محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت : طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت : بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت : أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت : نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت : منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت : بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت : أحمد فؤاد بليع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بليع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت : حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت : خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحي / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت . مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوييا وخ . م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	جين . ب . توميكنز	ت : حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيميونوفا	ت : حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت : أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٢	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت : سعيد الغانمي وناصر حلاوى
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت : مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت : محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت : محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت : خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت : عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت : أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت : ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت : محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت : محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت : نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت : عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوى
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت : إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديفيد روبنسون	ت : إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت : إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت : رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت : محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوى
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت : عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت : محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من النقاد	ت : محمود علي مكي
١٠٩ – حروب المياه	جون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادي پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلي
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة في الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية في مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهري سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور في الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير في كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندي ، وإيزابيل كمال
١٢٢ – نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣ – الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نيقولاي الكسندر وفنانوليفنا	ت : أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	جون جراي	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقي	سيدريك ثورپ ديڤي	ت : سمحه الخولي
١٢٦ – فعل القراءة	فولفانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحي	ت : بشير السباعي
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقي جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعي)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق علي	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	باري ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية	جوزيف ماري مواريه	ت : كاميليا صبحي
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تاروني	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد ڤاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقي الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبوري
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومي
١٤٣ – قضايا التنظير في البحث الاجتماعي	ديريك لايدار	ت : عدلي السمري
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدوني	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ – موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ – الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت : على عبد الرؤوف اليمبى
١٤٧ – خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ – القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ – النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ – التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت: منيرة كروان
١٥١ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٢ – عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ – غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ – مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت : خليل كلفت
١٥٥ – الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ – المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	ت : مى التلمسانى
١٥٧ – خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت : عبد العزيز بقوش
١٥٨ – هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان بروديل	ت : بشير السباعى
١٥٩ – الإيديولوجية	ديفيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ – آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت : حسين بيومى
١٦١ – من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت : زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ – تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت : صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ – موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ – شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوتير	ت : نبيل سعد
١٦٥ – حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت : سهير المصادفة
١٦٦ – العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ – فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت : شكرى محمد عياد
١٦٨ – دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت : شكرى محمد عياد
١٦٩ – إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ – الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ – وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ – حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ – معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ – صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ – التليفزيون فى الحياة اليومية	لوريتزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ – نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت : جلال البنا
١٧٧ – أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت : حصة إبراهيم منيف
١٧٨ – مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت : محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ – حكايات أيسوب	أيسوب	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ – قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت : سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ – النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت : محمد يحيى

١٨٢ – العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ – چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه چيلسون	ت : فتحي العشرى
١٨٤ – القاهرة .. حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	ت : دسوقي سعيد
١٨٥ – أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت : عبد الوهاب علوب
١٨٦ – معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ – الأرضة	بُزُرْج علوى	ت : علاء منصور
١٨٨ – موت الأدب	ألفين كرنان	ت : بدر الديب
١٨٩ – العمى والبصيرة	بول دى مان	ت : سعيد الغانمي
١٩٠ – محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت : محسن سيد فرجاني
١٩١ – الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت : مصطفى حجازى السيد
١٩٢ – سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
١٩٣ – عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت : محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ – مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي	مجموعة من النقاد	ت : ماهر شفيق فريد
١٩٥ – شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
١٩٦ – المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
١٩٧ – الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	ت : جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ – الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ – تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت : جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ – ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	ت : فخرى لبيب
٢٠١ – الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ – تاريخ النقد الأدبى الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ – الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	ت : جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ – تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت : أحمد محمود هويدى
٢٠٥ – الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى – سفورزا	ت : أحمد مستجير
٢٠٦ – الهيولية تصنع علماً جديداً	جيمس جلايك	ت : على يوسف على
٢٠٧ – ليل إفريقي	رامون خوتاسندير	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ – شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت : محمد أحمد صالح
٢٠٩ – السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٠ – مثنويات حكيم سنائى	سنائى الغزنوى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ – فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغني
٢١٢ – قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ – مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت : سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ – قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت : محمد محمود محى الدين
٢١٥ – سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢١٦ – جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت : أشرف الصباغ
٢١٧ – مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ – رايولا	خوليو كورتازان	ت : على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية فى الكون	بارى باركر	ت : على يوسف على
٢٢١ – شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراى	ت : نسيم مجلى
٢٢٣ – العلم فى مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادى
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد على البربرى
٢٢٧ – المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	موسى ماريا ديف بوركى	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : مارى تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١ – الدرافيل	خايمى سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام فى السودان	ج. سبنسر ترمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزى ج١	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادى	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩ – العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلارافر – رابوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامى حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – فى انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبرى محمد حسن عبد النبى
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفى بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق على منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : على إبراهيم على منوفى
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	وولتر آرمبرست	ت : محمد الشرقاوى
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : على بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومى
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ – ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ – تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت : محمود سيد أحمد
٢٥٨ – الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ – مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ – موسوعة علم الاجتماع ج٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ – رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ – مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ – الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ – إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت : لويس عوض
٢٦٥ – روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت : لويس عوض
٢٦٦ – مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت : عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ – فن الرواية	ميلان كونديرا	ت : بدر الدين عرودكى
٢٦٨ – ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت : إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧٠ – وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ – الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت : شوقى جلال
٢٧٢ – الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت : إبراهيم سلامة
٢٧٣ – الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان أر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ – السيدة بربارا	روميلو جلاجوس	ت : محمود على مكى
٢٧٥ – ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	أقلام مختلفة	ت : ماهر شفيق فريد
٢٧٦ – فنون السينما	فرانك جوتيران	ت : عبد القادر التلمسانى
٢٧٧ – الچينات : الصراع من أجل الحياة	بريان فورد	ت : أحمد فوزى
٢٧٨ – البدايات	إسحق عظيموف	ت : ظريف عبد الله
٢٧٩ – الحرب الباردة الثقافية	فرانسيس ستونر سوندرز	ت : طلعت الشايب
٢٨٠ – من الأدب الهندى الحديث والمعاصر	بريم شند وآخرون	ت : سمير عبد الحميد
٢٨١ – الفردوس الأعلى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	ت : جلال الحفناوى
٢٨٢ – طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبيرت	ت : سمير حنا صادق
٢٨٣ – السهل يحترق	خوان رولفو	ت : على البمبى
٢٨٤ – هرقل مجنوناً	يوريبيدس	ت : أحمد عتمان
٢٨٥ – رحلة الخواجة حسن نظامى	حسن نظامى	ت : سمير عبد الحميد
٢٨٦ – رحلة إبراهيم بك ج٣	زين العابدين المراغى	ت : محمود سلامة علاوى
٢٨٧ – الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كينج	ت : محمد يحيى وآخرون
٢٨٨ – الفن الروائى	ديفيد لودج	ت : ماهر البطوطى
٢٨٩ – ديوان منجوهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	ت : محمد نور الدين
٢٩٠ – علم اللغة والترجمة	جورج مونان	ت : أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج١	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر
٢٩٢ – المسرح الإسبانى فى القرن العشرين ج٢	فرانشسكو رويس رامون	ت : السيد عبد الظاهر

٢٩٣ – مقدمة للأدب العربي	روجر آلان	ت : نخبة من المترجمين
٢٩٤ – فن الشعر	بوالو	ت : رجاء ياقوت صالح
٢٩٥ – سلطان الأسطورة	جوزيف كامبل	ت : بدر الدين حب الله الديب
٢٩٦ – مكبث	وليم شكسبير	ت : محمد مصطفى بدوى
٢٩٧ – فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس – يوسف الأهوانى	ت : ماجدة محمد أنور
٢٩٨ – مأساة العبيد	أبو بكر تفاوابليوه	ت : مصطفى حجازى السيد
٢٩٩ – ثورة التكنولوجيا الحيوية	جين ل. ماركس	ت : هاشم أحمد فؤاد
٣٠٠ – أسطورة بروميثيوس مج١	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى وبهاء چاهين
٣٠١ – أسطورة بروميثيوس مج٢	لويس عوض	ت : جمال الجزيرى ومحمد الجندى
٣٠٢ – فنجنشتين	جون هيتون وجودى جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٣ – بـوذا	جين هوب وبورن فان لون	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤ – ماركس	ريـوس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥ – الجلد	كروزيو مالابارته	ت : صلاح عبد الصبور
٣٠٦ – الحماسة – النقد الكانطى للتاريخ	چان – فرانسوا ليوتار	ت : نبيل سعد
٣٠٧ – الشعور	ديفيد بابينو	ت : محمود محمد أحمد
٣٠٨ – علم الوراثة	ستيف جونز	ت : ممدوح عبد المنعم أحمد
٣٠٩ – الذهن والمخ	انجوس چيلاتى	ت : جمال الجزيرى
٣١٠ – يونج	ناجى هيد	ت : محيى الدين محمد حسن
٣١١ – مقال فى المنهج الفلسفى	كولنجوود	ت : فاطمة إسماعيل
٣١٢ – روح الشعب الأسود	وليم دى بويز	ت : أسعد حليم
٣١٣ – أمثال فلسطينية	خايير بيان	ت : عبد الله الجعيدى
٣١٤ – الفن كعدم	جينس مينيك	ت : هويدا السباعى
٣١٥ – جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو	ت : كاميليا صبحى
٣١٦ – محاكمة سقراط	أ. ف. ستون	ت : نسيم مجلى
٣١٧ – بلا غد	شير لايموفا – زنيكين	ت : أشرف الصباغ
٣١٨ – الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	نخبة	ت : أشرف الصباغ
٣١٩ – صور دريدا	جايتر ياسبيتاك وكرستوفر نوريس	ت : حسام نايل
٣٢٠ – لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٢١ – تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢	ليفى برو فنسال	ت : نخبة من المترجمين
٣٢٢ – وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو. إيوجين كليبنباور	ت : خالد مفلح حمزة
٣٢٣ – فن الساتورا	تراث يونانى قديم	ت : هانم سليمان
٣٢٤ – اللعب بالنار	أشرف أسدى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٢٥ – عالم الآثار	فيليب بوسان	ت : كرستين يوسف
٣٢٦ – المعرفة والمصلحة	جورجين هابرماس	ت : حسن صقر
٣٢٧ – مختارات شعرية مترجمة	نخبة	ت : توفيق على منصور
٣٢٨ – يوسف وزليخة	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٢٩ – رسائل عيد الميلاد	تد هيوز	ت : محمد عيد إبراهيم

٣٣٠ – كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	ت : سامى صلاح
٣٣١ – عندما جاء السردين	ستيفن جراى	ت : سامية دياب
٣٣٢ – رحلة شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٣٣ – الإسلام فى بريطانيا	نبيل مطر	ت : بكر عباس
٣٣٤ – لقطات من المستقبل	آرثر س. كلارك	ت : مصطفى فهمى
٣٣٥ – عصر الشك	ناتالى ساروت	ت : فتحى العشرى
٣٣٦ – متون الأهرام	نصوص قديمة	ت : حسن صابر
٣٣٧ – فلسفة الولاء	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٣٨ – نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند	نخبة	ت : جلال السعيد الحفناوى
٣٣٩ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٢	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٤٠ – اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربيروجلو	ت : فخرى لبيب
٣٤١ – قصائد من رلكه	راينر ماريا رلكه	ت : حسن حلمى
٣٤٢ – سلامان وأبسال	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	ت : عبد العزيز بقوش
٣٤٣ – العالم البرجوازى الزائل	نادين جورديمر	ت : سمير عبد ربه
٣٤٤ – الموت فى الشمس	بيتر بلانجوه	ت : سمير عبد ربه
٣٤٥ – الركض خلف الزمن	بونه ندائى	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٤٦ – سحر مصر	رشاد رشدى	ت : جمال الجزيرى
٣٤٧ – الصبية الطائشون	جان كوكتو	ت : بكر الحلو
٣٤٨ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ١	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٤٩ – دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدرون وآخرين	ت : أحمد عمر شاهين
٣٥٠ – بانوراما الحياة السياحية	أقلام مختلفة	ت : عطية شحاتة
٣٥١ – مبادئ المنطق	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٣٥٢ – قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	ت : نعيم عطية
٣٥٣ – الفن الإسلامى فى الأندلس (هندسية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٤ – الفن الإسلامى فى الأندلس (نباتية)	باسيليو بابون مالدونالد	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٥٥ – التيارات السياسية فى إيران	حجت مرتضى	ت : محمود سلامة علاوى
٣٥٦ – الميراث المر	بول سالم	ت : بدر الرفاعى
٣٥٧ – متون هيرميس	نصوص قديمة	ت : عمر الفاروق عمر
٣٥٨ – أمثال الهوسا العامية	نخبة	ت : مصطفى حجازى السيد
٣٥٩ – محاورات بارمنيدس	أفلاطون	ت : حبيب الشارونى
٣٦٠ – أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ت : ليلى الشربينى
٣٦١ – التصحر : التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	ت : عاطف معتمد وأمال شاور
٣٦٢ – تلميذ باينبرج	هاينرش شبورال	ت : سيد أحمد فتح الله
٣٦٣ – حركات التحرر الأفريقى	ريتشارد جيبسون	ت : صبرى محمد حسن
٣٦٤ – حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	ت : نجلاء أبو عجاج
٣٦٥ – سأم باريس	شارل بودلير	ت : محمد أحمد حمد
٣٦٦ – نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	ت : مصطفى محمود محمد

٣٦٧ – القلم الجرىء	نخبة	ت : البرّاق عبد الهادى رضا
٣٦٨ – المصطلح السردى	جيرالد برنس	ت : عابد خزندار
٣٦٩ – المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	ت : فوزية العشماوى
٣٧٠ – الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	ت : فاطمة عبد الله محمود
٣٧١ – المتصوفة الأولون فى الأدب التركى جـ٢	محمد فؤاد كوبريلى	ت : عبد الله أحمد إبراهيم
٣٧٢ – عاش الشباب	وانغ مينغ	ت : وحيد السعيد عبد الحميد
٣٧٣ – كيف تعد رسالة دكتوراه	أمبرتو إيكو	ت : على إبراهيم على منوفى
٣٧٤ – اليوم السادس	أندريه شديد	ت : حمادة إبراهيم
٣٧٥ – الخلود	ميلان كونديرا	ت : خالد أبو اليزيد
٣٧٦ – الغضب وأحلام السنين	نخبة	ت : إدوار الخراط
٣٧٧ – تاريخ الأدب فى إيران جـ٤	على أصغر حكمت	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٧٨ – المسافر	محمد إقبال	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٧٩ – ملك فى الحديقة	سنيل باث	ت : جمال عبد الرحمن
٣٨٠ – حديث عن الخسارة	جونتر جراس	ت : شيرين عبد السلام
٣٨١ – أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	ت : رانيا إبراهيم يوسف
٣٨٢ – تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد إسفنديار	ت : أحمد محمد نادى
٣٨٣ – هدية الحجاز	محمد إقبال	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٨٤ – القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	ت : إيزابيل كمال
٣٨٥ – مشترى العشق	محمد على بهزادراد	ت : يوسف عبد الفتاح فرج
٣٨٦ – دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ت : ريهام حسين إبراهيم
٣٨٧ – أغنيات وسوناتات	جون دن	ت : بهاء چاهين
٣٨٨ – مواعظ سعدى الشيرازى	سعدى الشيرازى	ت : محمد علاء الدين منصور
٣٨٩ – من الأدب الباكستانى المعاصر	نخبة	ت : سمير عبد الحميد إبراهيم
٣٩٠ – الأرشيفات والمدن الكبرى	نخبة	ت : عثمان مصطفى عثمان
٣٩١ – الحافلة الليلكية	مايف بينشى	ت : منى الدروبى
٣٩٢ – مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانخا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٣٩٣ – فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	ت : نخبة
٣٩٤ – القوى الأربع الأساسية فى الكون	بول ديفيز	ت : هاشم أحمد محمد
٣٩٥ – آلام سياوش	إسماعيل فصيح	ت : سليم حمدان
٣٩٦ – السافاك	تقى نجارى راد	ت : محمود سلامة علاوى
٣٩٧ – نيتشه	لورانس جين	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٨ – سارتر	فيليب تودى	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٣٩٩ – كامى	ديفيد ميروفتس	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٤٠٠ – مومو	مشيائيل إنده	ت : باهر الجوهرى
٤٠١ – الرياضيات	زيادون ساردر	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٢ – هوكنج	ج . ب . ماك ايفوى	ت : ممدوح عبد المنعم
٤٠٣ – ربة المطر والملابس تصنع الناس	تودور شتورم	ت : عماد حسن بكر

٤٠٤ – تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ت : ظبية خميس
٤٠٥ – إيزابيل	أندريه جيد	ت : حمادة إبراهيم
٤٠٦ – المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٤٠٧ – الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	أقلام مختلفة	ت : طلعت شاهين
٤٠٨ – معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	ت : عنان الشهاوى
٤٠٩ – انتصار السعادة	برتراند راسل	ت : إلهامى عمارة
٤١٠ – خلاصة القرن	كارل بوبر	ت : الزواوى بغورة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٥٧٤٩ / ٢٠٠٢



خلاصة القرن